خليل الهنداوي

دمعة صلاح الدين

دار صادر - دار بيروت

خليل الهنداوي

دمعة صلاح الدين

قصص

دار بيروت
للطباعة والنشر

دار صادر
للطباعة والنشر

بيروت

١٩٥٨

مقدمة

قد يكون الماضي ملهماً للقصة كما يكون الحاضر ، ولذلك سيجد القارىء القصة القديمة بجانب القصة الحديثة .

وقد أطمعني في الالتفات إلى الوراء تاريخنا القديم الزاخر بالعظمة والروح الإنسانية . فانتقيت بعض قصص بسيطة منثورة في تجاليد هذا التاريخ ، وأعدت كتابتها مرة ثانية على نور الشعور الإنساني الذي يستوي فيه الناس .

نعم ، إنني رجعت إلى الماضي ، في بعض هذه القصص ، أنثر حوادثه نثراً بين يديّ ؛ لا لأقول عن نفسي : إنني جامد، ألهو عن الحاضر ، وأستخفّ بالمستقبل .

لا ، وألف لا . . . إن الزمن في اعتقادي وحدة متماسكة لا تنفصل . وتأتي هذه الوحدة غنية ، حيّة دائماً ما دامت العواطف الإنسانية تعمرها .

ولذلك تستوي عندي القصة ؛ إن كان الماضي مبعثها أو الحاضر ، لأن موضوعها لن يكون في كل حال إلاّ الإنسان ...

هذا الإنسان الذي لم يتغيّر في نفسه ولا في عواطفه برغم تغير المادة حوله ، فنحن لا نزال تهزّنا الشهامة في المنتصر ، والإباء في المتمرّد ، والشفقة في قلب القوي ، والحنان في صدر الأم ، والسذاجة في عين الطفل . . . هذه العواطف السامية الإنسانية كلها تتجلى في إنسان اليوم كما كانت تتجلى في إنسان العصور البعيدة . ولذلك نحن لا نأخذ مرآة الماضين إلاّ لنرى عندهم وجوهنا ، ولا نحلل نفوسهم إلاّ لنحلّل نفوسنا .

وأرجو أن أكون محسناً فيما اخترت لحاضرنا ، لأن التاريخ – كما قيل – له وجه واحد ، ولكنه يتكرّر دائماً .

خليل الهنداوي

دمعة صلاح الدين

« ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب »
(غوستاف لوبون)

لم يشقّ الفجر من عينيه إلا قليلاً في مضارب الفرنجة حين شق الفضاءَ صوتُ امرأة تنادي :

– ولدي . . . أين ولدي ؟ كان هنا على يدي .

هب من في المعسكر قلقاً مضطرباً ، لا لأنهم تيقظوا على فجأة ، فقد كانت مثل هذه اليقظة تتكرّر في كل ساعة من آناء الليل والنهار ، ولكنهم قلقوا لأن الذي يصيح بهم صوت امرأة من نسائهم اللواتي تعودن صحبتهم طلباً لمشاركتهم في القتال ، وتسليتهم في السلم . وقد تعودوا أن يستيقظوا على نفخ الأبواق المنذرة باقتراب الخطر ، أو نيران الحرس المحدقين بالروابي والمضارب .

أقبلوا على هذه المرأة يسألونها : ما خطبها ؟ فقالت :

– فقدت ولدي الرضيع ، وكان نائماً بجنبي .

فأجابها أحدهم :

- ألهذا أثرت الجند ؟ بئس المرأة أنت . . . هذا أهون ما تلاقين على هذه الأرض . اشكري ربك لأنهم لم يخطفوك مع صغيرك .

التفتت المرأة وقد تسمر الغضب في وجهها .

- ويحك . ماذا تقول ؟ ألهذا أخرجتمونا من ديارنا ؟ لماذا لم تقولوا لنا إن المسلمين يخطفون الأطفال .

فأجابها مقدمهم ساخراً :

- أوَمن يسرق الرجال يعجزه أن يخطف الأطفال ؟ عودي إلى خيمتك ، واحسبي صغيرك ضحية بين الضحايا .

هدأت المرأة قليلاً ، ولكن عاطفتها في بركان لا يهمد :

- ولكن ولدي كيف أهدأ عنه ؟ إنه العالم في عيني ، ماذا أريد من الحياة بدونه ؟

أدار المقدم ظهره لها ، وهو يودعها بضحكة ساخرة :

- يبدو أنك لا تعرفين الحرب ، الحرب هي الحرب .

فصرخت في وجهه :

- ولماذا تكون هذه الحرب ؟ أريد ولدي .

• • •

تركوها وحدها مستسلمة إلى البكاء والحزن ، وقد ذهبت تعزيتهم لها عبثاً ، إنها تريد ولدها قبل أن تريد بيت المقدس ، وتود أن يبقى صغيرها على حضنها قبل أن تبقى على حضن

هذه الأرض التي فر منها السلام ، وأصبحت تنفخ بالويل ، وتشرق بالدماء .

راحت تملأ المعسكرات بصوتها الشجي ، وتقف في الدروب لعلها تجد من ينبئها عن مصير ولدها ، وهي لا تجني إلا الخيبة .

ناداها المقدم ، وقد أشجاه صوتها ، ويئس من أية تعزية تعمل على تهدئتها .

– لنعترف بأن هناك شخصاً واحداً يرده عليك .

ارتمت الأم على قدميه تمرغهما بخدها :

– قل لي من هو ؟ أقريب أم بعيد ؟

أجابها :

– إنه صلاح الدين .

قالت :

– أصلاح الدين أمير المسلمين ؟ أليس هو الذي اختطف ولدي ؟ فكيف يرده ؟

قال لها :

– إنني أعرف خلق صلاح الدين . . . إنه أشرف محارب رأيناه على هذه الأرض . هو قاسٍ على المقاتلين ، ولكنه رؤوف بالأطفال والنساء .

قالت له :

– وأنَّى لي أن أصل إليه ؟

أجابها :

– إن رجالي يستطيعون أن يتجاوزوا بك حدودنا.ثم يبدأ عملك بالوصول إلى مضاربه .

قالت له :

– وهل أنت واثق بأن يرد علي طفلي ؟

أجابها :

– إذا كان صغيرك حياً أو ميتاً فإنه سيرده إليك .

قالت ، وقد غلبت عليها اللهفة :

– إذاً ، دعوني أذهب إليه . سأمرغ وجهي بتراب فرسه ، سأبكي أمام أمه ، سأذكره بأطفاله ، سيراني أماً مفجوعة بطفلها . . .

أجابها ، وقد أمر بعض جنده بمرافقتها إلى الحدود :

– اذهبي إليه ، وعودي إلينا سريعاً .

مشت برفقة الجند متجهة نحو الشرق ، وهي لا تدري ما يخبىء لها القدر ، حتى بلغوا بها مكاناً لا يجرؤون أن يتخطّوه ، وقالوا لها :

– هذه هي الطريق التي سار عليها ولدك . . .

* * *

مشت وحدها على درب لا تعرف قبل اليوم معالمه ، ولا

تدرك إلى أين ينتهي بها . وقد بدأت هواجس الخوف تنتاب قلبها . أحقاً تستطيع أن تصل إلى هذا الشجاع الرحيم ؟ أتهيىء لها المقادير فرصة الوصول إليه ؟ أم لعلهم يقتلونها أو يأسرونها قبل أن ترى وجهه . . . ولكنها لا تبالي بأي شيء . أتؤسر ، وإنما هي أسيرة في الأرض التي تضم ولدها ؟ أم تُقتل ، وليس للحياة عندها معنى بعد مصرع ولدها ؟ وربما ارتجفت في الطريق وحدها ، وترددت في المسير ، فالتفتت إلى الوراء لترى أين مضارب قومها ، ولكنها لم تعد ترى شيئاً إلا الأرض الجرداء ، وأسراباً من شجر الزيتون عالقة هنا ، ولاصقة هناك . وما يدريها أن وراء كل شجرة محارباً ينتظر أن يوقع بها . . . لكن الهواء القادم من الشرق كان يحمل إليها صوتاً لا تسمعه إلا أذناها . هو بكاء رضيعها الذي فقد ثدي أمه ، إنها تسمع صياحه في كل مكان ، وإذ سكت صياحه تردد الصدى حولها يحثها على أن تتقدم .

وفجأة صاحت بها أصوات لا تعلم معانيها ، كأنما اختلطت بصوت رضيعها الذي يستحثها أن تتقدم .

– من هذه المرأة الأجنبية ؟ من هذه الشقراء الجريئة التي تعكر على الأسد هدوءه في عرينه ؟ ماذا تريد ؟

إنها تجهل اللغة ، ولا تعلم ماذا تقول ، ولكنها حفظت كلمة واحدة آمنت بها ، واعتقدت بأنها جواز المرور وحده ،

هي « صلاح الدين » .

* * *

قالت لهم ، وكأنّما هذه الكلمة أعطتها القوة والجرأة لمقابلة هؤلاء الفرسان السمر الذين تتلامح عيونهم تحت الخوذ البراقة كالشهب الثاقبة .

– أريد صلاح الدين .

أخذ ينظر بعضهم إلى بعض ، وهم حائرون ، لأن ذكر هذا الاسم وحده أعطى المرأة الأجنبية حياتها وأمنها ، ولكنهم لبثوا في دهشة بالغة من أمرها .

ماذا تريد هذه المرأة من صلاح الدين ؟ وأين سمعت به ؟ وكيف استطاعت أن تتخطى مضارب جنودها لتسلك هذا الطريق المجهول ؟ أفي الأمر مكيدة ؟ أرسولة من قومها تحمل إليه رسالة الاستسلام قبل أن يغزو بيت المقدس ، بعد أن مهد لها بمعركة « حطين » التي حطمت الغزاة ؟ ... أفكار وهواجس تراود مخيلاتهم ، وهم سائرون بها ، لا يجرؤون أن يسألوها ، وهي كأنها اندمجت معهم ، وسكنت إليهم ، دون أن يطرقها شك في أمرهم ، لأن مجرد اسم صلاح الدين وحده كان يعطيها التعزية والأمان .

* * *

وبعد مسيرة ذلك اليوم كلّه أشرفوا على « حطين » التي

لا تزال نشوى بالوقعة الكبرى التي اهتزّت لها جوانب ذلك السهل الكبير .

وجموع كثيرة دافقة تملأ السهول ومخارم الجبال ، وخلالهن كتائب ثائرة من هوادي الخيل ، عليهن فرسان مقنعون لم يزدهم ترداد المعارك إلا قسوة . وكان القائد الكبير صلاح الدين يهم بأن يشهر سيفه مشيراً به صوب بيت المقدس . . . وما أخّره عن سل سيفه إلا لفتة منه إلى هذه المرأة التي أخذت بالنحيب والبكاء ، فاهتزّ لها من يسمعها ، وهو لا يدري ما بها ، فارتمت على حوافر فرسه مستغيثة ، مستثيرة رأفته .

صاح بها صلاح الدين :

– يا هذه انهضي . ليس السجود إلا لله . ما خطبك أيتها المرأة ؟

قالت له ، وقد أعاد إليها صوته الرحيم هدوءها :

– ولدي . . . إنه ولدي .

قال لها :

– لا أفهم . أي ولد ؟ ألك ولد أسير عندنا ؟ ان كان أسيراً فهو حي عندنا . . . إننا لا نقتل الأسرى .

أجابته :

– لا . . . ليس بمحارب أسير . ولكنه طفل رضيع . كان ينام على ذراعي . ثم انتبهت ، فلم أجده ، سألت عنه

فقالوا إن رجال صلاح الدين قد اختطفوه .

قال لها :

– هدئي نفسك أيتها الأم . سيعود إليك الآن . . .

ونادى صلاح الدين بمن حوله ، وطلب إليهم أن يأتوه بالطفل حيث كان ، قبل أن يبرح المكان . إن الأمومة شفيع لا يُرد .

وظل صلاح الدين واقفاً ، وهذه الأم ساكنة إلى ظله ، ويده لا تزال على مقبض سيفه ، بينما راح بعض أتباعه يبحثون عن الطفل الذي عرفوا من ابتاعه بالأمس . وما هي إلا لحظات حتى أتوا يحملونه على أكفهم ، وقدموه لأمه التي أجهشت بالبكاء ، وراحت تفحص عينيها ، وتتلمسه بيديها ، كأنما خشيت أن تكذبها عيناها ، بينما تصدقها اللمس يداها .

– إنه ولدي . . .

وراحت تهدهده بالابتسامة التي كانت تتلامح خلال الدموع الغزيرة ، وتكشف عن ثديها المقدس ليلقمه هذا الصغير الذي راح يدير عينيه لأمه . حتى إذا هدأ جأشها قال لها صلاح الدين :

– والآن ، بماذا تفتدينه ؟

قالت الأم :

– بنفسي . بكل شيء . . .

فسألها :

– وأين أبوه ؟

فأجابته :

– لقد قتل في معركة « حطين » .

فهز صلاح الدين رأسه وقال لها :

– لن نبالغ في طلب الفداء . خذيه ، ولا تربيه على بغضنا. لسنا هنا بوحوش مفترسة ، ولا بشاربين للدماء . إن لنا عواطفنا الإنسانية التي تشعر بالإنسانية .

والتفت إلى بعض الأتباع ، وأوصاهم بها :

– انطلقوا معها لحمايتها حتى تصلوا إلى حدود قومها ، ودافعوا عنها كما تدافعون عن نساء صلاح الدين . إنها أم قبل أن تكون عدوة . . . والأمومة لا تعرف الحدود ، لأنها تقتحم كل هذه الحدود الكاذبة التي تقيمها مطامع الإنسان .

قدم لها أحد الجنود فرسه ، فركبته هي وولدها . وراحت تشكر البطل بدموعها ، والرضيع يملأ جوه الصغير بصوته المبهم ، بينما استقرت نفس صلاح الدين لهذه الرحمة التي خاض بها قلبه . وقال :

– اشكري رحمة الله التي فتحت قلوبنا !

وهنا هزت يده اليمنى مقبض سيفه الذي خرج من غمده مشيراً لجنده نحو الغرب ، بينما راحت يده اليسرى تمسح تلك

الدمعة التي غلبته على نفسه ، فلم تبق عين لمحت هذه الدمعة حتى سخت بالدموع إعجاباً بدمعة صلاح الدين .

– أهذا الذي لم تطربه إلا الدماء تثير هذه الأم وصغيرها دمعته في هذا المأزق المتلاحم ؟

وكلا الفريقين اتجه نحو غايته .

مشت الأم عائدة في الطريق الذي حملها بالأمس ، وهي تشعر بحنان خفي يدفعها إلى أن تغادر هذه الأرض . وتتمنى أن الطريق لا ينتهي بها ، ما دام صغيرها معها ، وهنا ناداها الحارس :

– الآن تستطيعين أن تبلغي مأمنك وحدك . . . إن مهمتنا قد انتهت .

ولكن الأم وقفت ثم التفتت إليه :

– أمجبرة على الرجوع إلى قومي ؟

أجابها الحارس :

– ولكننا ننفذ رغبتك .

فقالت له :

– إني عائدة إلى أرضكم . . . لن أعود إلى قومي . إن المكان الذي ينبت الرحمة هو مكان قلبي . حيث تكون الإنسانية مكرمة فذا هو . . . وطني ! لن أعود . وسأحيا بجانب أميركم . كنت أحسبكم قساة ، غلاظ الأكباد ،

فإذا أنتم أرق منا قلوباً . . .

وهنا أدارت رأس الجواد ليعود بها خبباً نحو مضارب أعدائها .

ولما استطاعت أن تقابل صلاح الدين بعد فتحه لبيت المقدس ابتسم لها وقال :

– لقد عرفت أنك لا بد عائدة إلينا.والآن ماذا تريدين ؟

فقالت :

– هل يأذن لي الأمير بأن أفي نذري الذي خرجت لأجله من أرضي ؟

فسألها :

– وما هو هذا النذر ؟ لعل تعاليم ديني لا تجيزه .

فقالت :

– لقد نذرت على نفسي ، متى خرجت من ديار أهلي أن أعيش وأموت بجوار قبر المسيح .

فقال لها :

– إننا تركنا لكل مخلوق حرية عبادته . اذهبي إلى أية كنيسة من كنائس بيت المقدس فأنت آمنة فيها حتى يأتيك أجلك الموعود .

* * *

تمر الأيام ، وتكر السنون ، وصلاح الدين ينتقل من

ظفر إلى ظفر حتى وافاه قدره . وكان يوم موته يوماً مشهوداً في الأرض التي كانت تتطيب بحوافر فرسه .

وفي يوم من أيام الحر اللاهبة كانت الطريق التي تصل بيت المقدس بالشام تشف عن شخصين يمشيان حثيثاً ، حتى يدخلا الشام . فلا يسألان عن راحة ولا إقامة ، وإنما يواصلان السير حتى يطلا على قبر صلاح الدين. فيسقط أحدهما على ترابه ، وهو امرأة عجوز محطمة ، لم تبق منها الأيام إلا ملامح تكاد تنطفىء ، والثاني فتى يلبس الزي العربي وقف بجانب هذه العجوز جامد الملامح ،بعيد التأمل فيما وراء التراب.

لقد طال وقوع هذه المرأة على القبر ، ولما أراد أن يحركها فتاها لينهضها لم يجد منها إلا جثة هامدة . فأبعدها عن القبر ، وحملها ذاهلاً لهذه النهاية المفجعة ، يتدلى رأسها وشعرها الأشيب من ناحية ، وقدماها الرخوتان من ناحية ثانية . والصليب يتموج تحت عنقها الحانية . . . ثم أضجعها جنباً ، وراحت عينه تذرف الدمع المتقطع وهو يلتفت مرة إلى هذا الجسد المتمدد الذي يلمسه بيديه ، ومرة إلى هذا التراب الذي يطوي ذلك القلب الكبير ولم يزد على أن قال :

– حقاً ، لقد قتلت أمي دمعة صلاح الدين .

وبعد أن واراها في قبرها ، رجع إلى رفاقه ليكمل حظه من الجهاد .

هؤلاء هم أبناء عمورية

لا تعلم تلك القرية « زبطرة » القابعة على الحدود ، المستسلمة إلى نومها ، ما خبأ لها القدر تلك الليلة ... لقد كان كل شيء نائماً . . . حتى المصابيح اللاهثة في كوى الجدران كانت تشكو بطء الكواكب ، والكلاب السارحة أتعبها النباح على الأشباح ، فأقعت لتستريح .

في هذه الغفوة كانت الحقول القريبة ترجع وقع خيل تحاول أن تجد طرقاً مسلوكة خفية إلى القرية لتفجأها بالليل والهول . وكأنما هذه الأرض لم تعد تبالي بمثل هذه السرايا . لأنها تشهد مثلها كل ليلة ، فمن هنا تمر سرية عربية ، ومن هناك تجوز سرية رومية . . . ولكن أكثر ما يهيج النفس ما تراه العين خلف كل سرية بعد رجوعها ، من رجال مكبلين بالحديد ، ونسوة متلهفات ينظرن مرة إلى الوراء ، بعين الأمل والرجاء ، ومرة يتأملن أمامهن في الطرق الطويلة البعيدة ، لا يعلمن أين المنتهى ؟ قد فصلن عن رجالهن وأولادهن وبيوتهن ، وسرن أسرى بين أيدي الغزاة الذين يمشون حيناً صامتين ، وحيناً يفتحون العيون ، فيرسل أحدهم أغنية فيها الحماسة ،

وفيها النشوة وفيها الحنين ، فتدب الحياة في عروقهم . . . ويمشون .

في كل ليلة كانت الحدود تشاهد مثل هذه الغارات المتتابعة ، كل غارة تقابلها غارة ، وكل قرية تنتقم لقرية ، والناس على الحدود تعودوا مثل هذه الحياة القلقة . تعود الرجل أن يعود إلى قريته فلا يجد من أهله أحداً ، وتعودت الأم أن ترى مصارع أطفالها بعينيها ، وتعود الطفل أن يرى أمه تساق أمامه سبية إلى أرض مجهولة ، وهو لا يملك شيئاً .

إذاً ، كانت هذه الخيل الرومية تقترب رويداً رويداً من « زبطرة » في محاولة مبيتة للانتقام منها لقرية رومية غزاها العرب منذ ليال .

لم يكن في « زبطرة » إلا نفر قليل يحرسون مداخلها،وفي أعقاب الليل شعروا بكتائب العدو تدنو من القرية . فأهابوا بالنائمين ليكونوا على يقظة من أمرهم . فاختلط الأمر ، والتحم أهل القرية مع الغزاة يردونهم عن الحمى ، ولكن خيل العدو استطاعت أن تتمم غزوتها ، فقتلت ، وأحرقت ، وأسرت ، وسبت . . .

لم يشق الليل،من تلك الأصوات المختلطة بصليل السيوف ، وقعقعة الرماح ، وقراع الدروع ، إلا صوت واحد ترسله امرأة من وسط القرية ، ولا يذكر الناس أنهم سمعوا صوتاً أشد ولا

استغاثة أبلغ منها :

– وامعتصماه !

هذه هي الكلمة التي شقت بها تلك المرأة ضجيج ذلك الليل، ومن بعدها هدأ كل شيء ، لأن كل ما أرادت القرية أن تقوله في تلك الليلة قالته هذه المرأة وحدها . فالحدود المطروقة ، والقرى الموطوءة تنظر الآن إلى المعتصم ، خليفة بغداد ، لينتقم لها ، ويؤدب العدو الطامع فيها .

لم تكن هذه المرأة إلا عائشة ... وهي هاشمية النسبة ، نزلت هذا الموضع مع ولديها الصغيرين ، وزوجها الذي كان من حراس الثغور . وتشاء المقادير أن يكون نصيبها من النكبة كبيراً ، فشاهدت طفليها يذبحهما قائد الحملة أمامها ، وعلمت أن فتاها قد قاوم حتى قتل . فلم يعد لها من هذه الدنيا أحد يصلها بالدنيا ، وودت لو أن العدو قتلها مع طفليها ، بل همت أن تقتل نفسها . – الموت ؟ إنه آت . . . لماذا أستعجله ؟ ولكن الانتقام ممن ذبحوا أطفالي هو غايتي من الحياة الآن .

إنها تريد أن تنتقم ، وإنها تريد أي طفل من أطفال الروم لتذبحه بنفس المدية التي حزت أوداج أولادها . ولذلك خبأت هذه المدية في ثيابها ، وتوارت عن العيون خشية أن يلحقوها بالسبايا . وجمعت جثتي ولديها في مرقد واحد ، وأخذت هماهم صدرها تخرج حرّى ، متوجعة ، وعيونها تدور هنا

وهناك متوقدة ، متجمدة ، لا دمع فيها ، ولا حنان تبضّ به .

وطلع الفجر على قرية مفجوعة فقدت أكثر من نصف أهلها بين قتيل وجريح وأسير ، وكثير من الأطفال لقوا مصارعهم على أيدي قساة لا يحققون الثأر إلا بالدم ، وكثيرات من النساء ساقوهن أسرى إلى مرابع الروم إذلالاً للإباء ، ونكاية بالكبرياء .

•

جاء النبأ بغداد ، فأحزنها أمر زبطرة ، وسمع المعتصم بما كان فلم يثره إلا استغاثة هذه المرأة به ، على بعد ما بين الحدود .

– أأسمع هذه الصيحة وأهدأ ؟ لا كنت المعتصم إذا تصاممت عن ندائها .

أمر الجيوش فتألفت ، وأمر القادة فاستعدوا .

– إلى أين يريد المعتصم من بلاد الروم ؟ وبينه وبين ملكهم موثق . إن الملوك لا يغادرون عروشهم إلا لأمر عظيم .

– أجل . . . لأمر عظيم دعوت هذه الجيوش . ان امرأة مفجوعة استجارت بي ، ففي أي مكان أشفي نفسها ؟ وأي بلد يذهب ثأراً لزبطرة ؟

– عمورية . . . عمورية ، إنها مرتبع الروم .

صاح أحد القادة ، وعلى وجهه ملامح قاسية ، تتمثل

فيها فجائع زبطرة .

– ولكن عمورية بلد حصين وبعيد . ولا نثق في الوصول إليه ، ولا تأمل بالرجوع منه .

أجابه آخر . ولكن المعتصم صاح به :

– بئس الرأي رأيك . متى كان الحذر من خلق القواد العباقرة ؟

وهنا أدرك الجمع أن المعتصم جادّ هذه المرة ، وأنه يريد أن يبلغ صميم بلاد الروم ، وأن ينتقم لزبطرة من عمورية ، حتى يضع حداً لهذه الغارات .

– ولكن ، يا مولاي،إنك مجازف بنفسك وبجيشك، لأن النجوم تخبرنا أن عمورية لا تُقهر في هذه الأيام .

هذا صوت أحد المنجمين ، وكان لا يستقر نظره إلا في الأعلى ، لكثرة ما انصرف نظره إلى السماء . أجابه أبو تمام الشاعر ، وكان قريباً من الخليفة :

– السيف أصدق انباء من الكتب .

وحقاً كان الجواب بليغاً .

أمر المعتصم بتسيير الجيوش ، وأن تكون تلك المرأة المفجوعة التي استغاثت به على رأس هذه الجيوش ، لتحقق رغبتها في الثأر ، وانتقامها من ذلك القائد الذي ذبح ولديها .

* * *

تذكر روابي أرض الروم المتناثرة في أواسطها أنها لم تشهد من قبل جيشاً كجيش المعتصم ، يسعى به أبطال غرباء ، لم يسبق أن شاهدتهم في مواكب الفاتحين . . .

– إنه يمشي فيستسلم إليه كل شيء ، ولكن إلى أين النهاية ؟

كان الروم ينظرون إلى هذا الجيش وينفرون من طريقه ، ولكنهم لا يعلمون أين يتجه ؟

– أيتجه إلى القسطنطينية ؟ ولكنه كان يتيامن ولا يتياسر . أيتجه إلى عمورية ؟ ولكنه سينتحر على أبوابها الحصينة كما انتحر جيش أميّة على أبواب القسطنطينية .

لا يزال جيش المعتصم يقتحم الدروب ، لا يجرؤ العدو أن يقابله في مكان . حتى لاحت له قباب كنائس عمورية الزاهية في السماء . وعمورية باركة على ربوة عالية ، حصينة ، يمتد تحت سفوحها حقول مخضوضرة ، مصقولة ، هي إشارة الربيع .

أخذت الجيوش تلتفّ حولها ، وتنصب مضاربها ، وتقيم عدتها ، ولا تعلم كم يطول المقام .

– ولكن ها مرت الأيام والأسابيع ، والحالة لا تتبدل . ولا شيء يدل على أن العدو سيخرج من مكانه في المدينة مهاجماً . . .

– عليك ، يا معتصم ، أن تدبر أمر المدينة قبل أن ينزل الخريف ، وقبل أن ينضج التين والعنب . العدو ينتظر الخريف لأنه وحده ينقذه منك . . . في الخريف تنسد الدروب ، وتنقطع المسالك ، ويتمزّق جيشك بدَداً .

هذا النداء الهاجس كان يسمعه المعتصم في كل ليلة تلحق أختها . ولكن كيف يعود ولما ينتقم ؟ وماذا يقول لهذه المرأة التي جاء بها لتنتقم ؟ وكلما مرت ليلة ازداد هذا النداء قوة في أذنيه .

– أيهاجم خنادق المدينة ، ومشارفها المحصنة بجيشه ، وهو يراهم يتساقطون صرعى أمامه ؟ أما . هنالك . حيلة تخفف من أثقال الضحايا ؟ أم ينتظر حتى يجوع العدو ، ومن الحق أن لن يجوع هذا الشتاء . بعد أن جمع الأقوات ، واستعد للحصار . . . أم ماذا ؟ . .

خرج المعتصم ذات ليلة ، يتفقد جنده ، وينظر ما عندهم ، فرأى أكثرهم يتذمرون من هذا السكون ، ويشكُون في فائدة الحصار . وبينما هو يطوف ، وقع على عصبة يعرض واحد منهم فكرته ، وهم يستمعون إليه بإصغاء :

– ليس للخليفة إلا طريقة واحدة عندي يستطيع بها فتح المدينة .

دعاه المعتصم إليه وطلب أن يرى طريقته . . .

– إني أرى أن تجمع ما لديك من نبال ، وتتخذ مخافر أمامية للهجوم ، ثم تحمي هذه النبال في نار شديدة ، ثم تغط في القطران ، ثم يقذف بها إلى الأسوار الخشبية والأبواب والسقوف ، فتحدث بذلك حرائق كبرى ، لا يقدر القوم على إخمادها .

فكر المعتصم في هذا الرأي وعزم أن يعمل به ... وبعد أيام كانت السهام تنقض من السماء كالوبل المنهمر ، حاملة النّار واللهيب . فاستيقظ القوم لها ، وهبوا يطفئون أماكنها ، ولكنها كانت أكثر من أن تكافح . فانتشرت النيران على الأسوار ، وراحت تأكل الأخشاب ، وكل شيء تجده أمامها كالهشيم اليابس ، حتى إذا جاعت باتت تأكل الحجارة ، وتفتت الصخور .

وعند ذلك وجد العرب منافذ واسعة إلى قلب المدينة ، فاختلط المهاجمون بالمدافعين ، مرة يتقاتلون على لهب النار التي تملأ آفاق السماء ، ومرة يغشاهم دخان أسود ، قاتم ، فتدل الأصوات وحدها على وجود الأحياء .

تلك معركة لم تعرف قوانين المروءة ، لأن الأحقاد كانت تسعرها ، وفي مثلها يستوي البريء والمجرم ، والشاكي السلاح والأعزل ، وحامل القناة وحاملة السوار ، فمن نجا جلده من ضربة أو طعنة نضج جلده في النار .

ولما طلع الفجر طلع باهتة ألوانه على مدينة محروقة ، مهشمة . لا تكون يد الطبيعة في غضبها أقسى عليها من يد الإنسان .

انتهت المعركة ، ولكن لم ينته الثأر . . .

نادى المعتصم :

– علي بالمرأة المثكال .

جاءت المرأة ، وقد برقت أسارير وجهها :

– ماذا تريدين الآن لإطفاء ثأرك ؟

أجابت المرأة ، وروح الانتقام يزيدها زهواً :

– علمت يا مولاي بأن للقائد الذي أمر بذبح طفلي طفلين مثلهما . . . أريد أن أذبحهما بيدي .

قال المعتصم ، وهو لا يقدر أن يعترض نذرها :

– لك ذلك . . .

قالت :

– وأن يكون أبوهما وأمهما شاهدين حتى يعرفا الألم الذي لم يعرفاه ، ويذوقا شيئاً كانا في غنى عنه .

قال المعتصم :

– مطلبك حق .

ثم أمر الجند بأن يأتوا بالطفلين والأم والوالد . وعين لذلك يوماً من الأيام المشهودة ، تنسى بها زبطرة الممثلة في

هذه المرأة الثكلى ألمها وشقاءها .

في ذلك اليوم الموعود ، وفي حلقة واسعة من رجال المعتصم ، تقدمت امرأة عربية بردائها المخضب بدماء أولادها ، وبيدها مدية حادة ، هي ذات المدية التي ذبح بها طفلاها . ولا يزال الدم البريء يابساً عليها . كانت تجيل عينيها الجامدتين فيما حولها من الناس كالحيوان الجريح ،وفي وسط تلك الحلقة طفلان روميان ، أخ وأخته ، وهما ينظران ضاحكين : لا يدريان ماذا ينتظرهما ؟

لعلهما ينتظران أباهما الذي أكلته السيوف . أو أمهما التي أتت عليها النار ، ولكنهما لا يعلمان لكل هذا سبباً . ولا يفهمان له معنى ، ولكنهما ، مع ذلك ، أخذا يرتجفان من الخوف حين أقبلت عليهما تلك المرأة كاللبوة الغضبى . وبيدها مدية لامعة .

– هيا أيتها المرأة . خذي بثأرك الآن . السن بالسن ، والعين بالعين ، والقاتل أظلم .

اقتربت المرأة بخطى ثابتة ، وأمرت بأن يقيد الطفلان بحبل واحد ، فركض الصغير إلى أخته الكبرى يتعلق بها ، ويناديها بالرومية :

– أختي .

وخفت الصغيرة إلى هذه المرأة ، حين لم تجد ما ينقذها

منها ، وهي تنظر إليها بعينين كبيرتين ، بينا راح شعرها الأشقر يتموج على ظهرها .

وكان الصياح لا يزال يتعالى من حولها كذلك الصياح الذي كان يتعالى في ميادين الصراع الرومانية ، يدعو الغالب إلى ذبح المغلوب . . .

–هيا. اشطبي المدية في أعناقهما. إن دمهما النقي يتركك في نشوة لا تنتهي .

بركت المرأة على الطفلين ، وجردت مديتها ، وهمت ، ونادت :

– يا لثأر أطفالي في زبطرة !

ولكن صيحة الخوف أنطقت الصغيرة :

– ماما !

أنطقتها بهذه الكلمة المعروفة في كل لغة إنسانية ، والمذكورة في كل معجم . . . فارتعشت يدها ، وسقطت المدية من يدها ، لأن شعور الأمومة غلب عليها ، وارتدت إلى الوراء ، وهي مجهشة في البكاء :

– آه . لا أقدر . إن أطفال العالم هم اليوم كلهم أطفالي .

وجم الجميع لهذه العاطفة ، وانتظروا ما يكون من شأن هذه المرأة التي استحالت كلها إلى أمومة صافية . . . وأقبلت على المعتصم :

– إني أهنئك يا مولاي بهذا الفتح ولي طلبة واحدة ... هي أن تهبني هذين الطفلين ليكونا لي بعد أن فقدا أمهما .

أكبر المعتصم هذه العاطفة ، وما كان له إلا أن يستجيب لرجائها .

– إنهما لك ، وبارك الله بك . هل فهم الأعداء أننا قساة في الحرب ، رحماء في النصر ؟

* * *

عادت المرأة بالطفلين إلى زبطرة . . . ونشآ عندها في ظل أمومة رحيمة ، وكان الناس كلما نظروا إليهما قالوا :

– هؤلاء هم . . . أبناء عمورية .

القلب الجريح

هذا هو إله الطب تعبث يداه بعقاقير استخلصها من الأرض ، كم يحنو على هذه العقاقير ! لأنه يجد فيها منقذات للمرضى من آلامهم . وكم يحرص على صيانتها لأنه يعتقد أن كل عليل يجب أن يداوى بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة متطلعة إلى هوائها ، ونازعة إلى غذائها .

دخلت عليه زوجه الحسناء تريد أن تقاضيه ، لأنه أهمل لقاءها زمناً طويلاً ، وهي تنتظره أن ينتهي من هذه العقاقير .

– أما آن لك يا « ابيقراط » أن تذكر هذه النبتة الذابلة ؟

– حقاً يا سيدتي لقد طال نسياني . . . إن سحر هذه العقاقير أنساني واجبي . يبدو أننا تخلفنا كثيراً . إن بيوت الآلهة ستكون الليلة عامرة بالراقصين والراقصات . تكلمي . ابتسمي ! ليس شيء كجمال الجسد البشري حين يكون بريئاً من المرض . هل تشكين شيئاً ؟

– الحق ان الحياة معك شر من الحياة مع المرضى ! لقد قتلتني بكثرة عنايتك بالناس . وأنت تهمل أقرب الناس إليك .

– حقاً يا زوجي الحسناء ! لقد ألهاني عنك حبي الناس،

وإشفاقي على الناس .

وهنا أقبلت عليه تعبث بعقاقيره ، وتود أن تطرحها أرضاً.

– على ماذا تقدمين ؟ ألا يهمك أن تخفف من آلام المرضى ؟

– إنك لمريض ، ولا تفكر في معالجة نفسك . كيف أخرج إلى المرقص بلا زينة ولا حلية ، وأنا أرى حسان « أثينا » يبرقن بأرديتهن المصبّغة ، وحليّهن الفاتنة ؟ . .

– آه يا حسنائي ! إنك ككل امرأة تريدين الذهب . لو أردتُ الذهب لوزنتُ جسمك به . ولكن أيبقراط الطبيب يستخف بالذهب .

وهنا انتفضت الحسناء ، وأرسلت من عينيها وميض الذهب الذي تحبه .

– أعطني الذهب ، وعلل كما تشاء ! اذهب بي إلى هذا الملك الذي عرض عليك القناطير من الذهب لتقيم عنده تعالجه ، وترعى جسمه .

– ولكن أيروقك أن أتنكر هذه الأرض التي أخرجتني ، وأضن عليها بهذه الموهبة التي ترد الميت حياً ؟ إني نذرت نفسي لمعالجة أبناء وطني بدون جزاء ولا شكور .

– ولكن أرأيت غيرك من تلاميذك كيف يملكون الأطواق ، والأكاليل ، والأسورة ، لم يعد منهم إلا من تنحني

أثينا له ولا ينحني لها ؟

– ذلك مذهبي وقسمي الذي عاهدت نفسي عليه . تأخذ من الأغنياء ما نعالج به الفقراء وأواسط الناس . كل حياة ننقذها إنما هي أنشودة بمدح الإنسانية . الويل للإنسانية حين لا تجود بخدمتها إلا مأجورة .

وبينا كان أبيقراط يردد هذه الجملة كانت ألحان معابد أثينا تتسرب إلى غرفته . لتذكر حسناءه بأن الليل فاحت فيه نشوة الملذات المسفوحة على درجات المعابد العميقة ، منها ما يضيئه القمر الذي يحتدّ شعاعه حيناً ، ثم يخبو تحت سحائب رقيقة تركض من تحته كأنها زاحفة إلى ميعاد . . . لتسجل أن كل حياة ، في هذه الليلة الممتعة ، تسعى إلى ميعاد . ومنها ما تنعكس عليه أضواء شاحبة متراقصة من ذوائب المصابيح المغمورة بالزيت العتيق الطيب ، فتذكر هذه المخاليق أن الحياة ، أجمل ما فيها هذه الساعات المنطلقة التي تهرب من حساب الزمان على حساب الزماد .

ولكن من يرسل طرفه ، تلك الليلة ، في قصر الملك يرتد مذهولاً ، لأنه لا يقع على أنوار صاخبة ، ولا يسمع ما كان يسمعه من ألحان مثيرة مخدرة ، وإنما يرى قصراً صامت الجدران ، باهت الألوان . ولعل الرائي سيزداد حيرة إذا كان غريباً . لكن سكان أثينا يعلمون سبب سكوت القصر ، وودوا

أن يفعلوا كل شيء ليعيدوا إلى هذا القصر بهجته . ولكنهم يعلمون أن ولد الملك الذي ألمّ به سقم خفي أضعف جسمه وأخرجه عن عقله وعالمه هو العلة في سكوت هذا القصر .

كل حسناء تتساءل في معابد الحب :

– ما لهذا الفتى يذوب كل يوم !

وكل شاب يتلهف على من كان قائدهم إلى المسرات ، وكل شيخ لا يرى في هذا المصير عجباً ، لأن الحياة لا تمشي بقانون معين .

كان يهم « أبيقراط » بالخروج متأبطاً ذراع زوجته التي آثرت أن تستعير حلي جارتها ، وتجعل من صدرها مسرحاً تغبطها عليه إلاهات الأولمب ، فإذا طرْق عنيف على الباب يزعج من لم يتعود سماعه في الليل ، لكن أبيقراط تعود أن يسمعه كثيراً ممن يقصدونه من مرضى أو دعاة لإنقاذ المتألمين .

– من الطارق ؟

– نحن رسولا الملك إليك .

هدأ قلب الحسناء عندما سمعت باسم الملك ، وظنت أن الملك يدعوهما إلى حفلة سبق أن تفقدهما فيها .

– ولكن ما شأن الملك بنا في مثل هذه الساعة ؟ . .

– إنه يطلب أن تأتي ، وتأتي بوسائل المعالجة معك .

ما كان أشد خيبة الزوجة الحسناء حين أيقنت أن زوجها يدعى لمعالجة مريض ، وأنها لن يكون لها نصيب في الاستمتاع بأفراح هذه الليلة ، وزادها يأساً أن المريض لا يمكن رده . فأسفت على حياتها لأن زوجها يملكها ، وأسفت على حياة زوجها لأنه لا يملك حياته ولا راحته .

– إنه طبيب . . . وليس للطبيب أن يملك حياته ، بابه مفتوح دائماً ، وقدماه مستعدتان للسير كل لحظة . . . يعيش مع الإنسان في أضعف حالاته وأبشعها ، وهو ، مع ذلك ، يبتسم لأنه يرى نفسه شريكاً للآلهة في منح الحياة .

لم يزد أبيقراط على أن نظر إلى زوجته نظرة منكسرة أدركت معناها ، فتركته ، وحملت إليه حقيبته الجلدية ، فيها بعض العقاقير التي دب إليها النشاط والبريق .

كان القصر صامتاً ، لا يدخله من الأصوات إلا ما تعكسه جدران المعابد ، وتهتز له الروابي القريبة منه ، حتى إذا صرّ الرتاج انقطع عن كل صوت ، وعن كل شيء منه في أضواء شاحبة ، وسكينة عميقة .

مشى في رواق طويل ، تصله أعمدة رخامية جبارة ، ينعكس الضوء على بياضها وملاستها فتتراءى كأنها أشخاص بيض تستقبل زائرها ، حتى انتهى إلى حجرة ينطوي نورها على صور عارية متكئة على جدرانها ، وتماثيل مركزة في

محاريب مختلفة . وسرير في الزاوية متشح بالأطلس الأزرق الناعم ، وعلى السرير فتى تدل عيناه الغائرتان على أنه لم يذق النوم منذ ليال بعيدة .

جس أبيقراط نبضه . وتلمس مواقع جسمه ، فلم يجد علة باطنة تحكم على هذا الجسم بالضعف .

– إذاً ما هي العلة ؟ هل تكون خارجية ؟ . . والطب لا يعترف إلا بالعلة الباطنة . . .

طلب أبيقراط أن يخلّوا ما بينه وبين الفتى ، فلما أمسى معه وجهاً لوجه قال له :

– إنك تزعم أنك عليل ، والعليل يسعى إلى الشفاء ، أليس كذلك ؟ . .

أجابه الفتى :

– نعم ، ولكن ما علّتي ؟ . .

قال أبيقراط :

– أنا وأنت والعلة ثلاثة . فإن أعنتني عليها بالقبول كما تسمع مني صرنا اثنين ، وانفردت العلة ، فقوينا عليها ، والاثنان إذا اجتمعا على واحد غلباه . . . فهل أنت آسف على شيء ؟ هل أنت طامح إلى شيء ؟ . .

لم يرد الفتى على هذه الأسئلة إلا بالصمت .

– كم يؤسفني أيها الفتى أن تقبع هذه الليلة في هذه الحجرة

الصامتة . ورفاقك يلهون ويقصفون ! أليست لك حسناء تنتظر أن توافيها على موعد في هذا العيد ؟ انظر إلي – أنا الكهل الغارب – كنت على موعد مع حسنائي ، ولكنك أفسدت علي موعدي ، تذكر كيف حالها وهي تنتظر !

كان أبيقراط يجري في حديثه بصوت عذب موسيقي منحدر يمثله شاعراً لا طبيباً ، والفتى غمرته موجة من الأمل ، تفتحت لها عيناه ، وانفرجت شفتاه .

– تكلم ! إنك تريد الكلام . لو كنت تمثالاً صامتاً لتكلمت .

ثم عاد الصمت ، كأن لم يكن هنالك من شيء .

خرج أبيقراط موقناً بأنه ليس هنالك من علة ، وإنما هو العشق الذي طالما صرع الشباب . واتصل ببعض خاصة الفتى ، وسألهم عمن يعاشر ، وإلى أية ناحية هواه . فلم يجد عندهم خيراً . ولكنه طلب إلى الملك أن يتركه يتصرف في قصره كما يريد ، فأطلق يده ، وطلب إلى رئيس الحرم أن يخرج إليه نساء القصر كلهن ، ووقف هو والفتى في نجوة يتطلعان إلى هذه الأبدان اللينة التي لا تنثني إلا بين ذراعي الملك ، وأبيقراط ممسك بيد الفتى ، ومتلمس نبضه . . . وفجأة أخذ هذا النبض يسرع ، وملامح الفتى تتغير وسطع على عينيه بريق غريب . وكلما دنت منهما هذه الحظية طار قلبه ، وحار

طبعه . فعلم أبيقراط أن هذه الحظية هي موطن العلة ، ولكن ، كيف يفاتح أباه بها . . . وأنّى له أن يتنازل عنها ، وهي حظيته ؟ . .

سعى إلى الملك ، ودخل عليه مقطب الوجه ، وقال :

– ابن الملك عاشق !

– ويحك ! ولمن ؟ . .

– لمن الوصول إليها صعب .

– ولكن ، لا يصعب على الملوك شيء ، ومن تكون ؟ . .

– إنه يحب زوجتي .

– الأمر يسير . انزل له عنها ، ولك مني ما تشاء .

– ولكن ، هل رأيت أحداً كلف أحداً طلاق امرأته ... لا سيما الملك في عدله يأمرني بمفارقة حليلتي ، ومفارقتها مفارقة روحي .

– ولكني أؤثر ولدي عليك ، وأعوض عنها من هي أحسن منها .

– ولكن ، هيهات يا مولاي ! إن القلوب لا تباع ولا تشرى .

– إذاً يحملك السيف على ما تأباه .

– مولاي ! لا حاجة إلى السيف والتهديد . إنني واثق كل الثقة في عدلك . أرأيت أن الملك لا يسمى عادلاً حتى

ينتصف من نفسه ما ينتصف من غيره ؟ . . أرأيت لو كانت العشيقة حظيّة الملك ! . .

وهنا ساد صمت غريب بدد البريق والوعيد . . . ثم التفت الملك إلى أبيقراط :

— حقاً إن عقلك أتم من معرفتك ، وفطنتك أبعد من طبك ! لقد أحسنت الكشف عن العلة ، وأحسنت التلميح إلى موضع الشفاء . إني نزلت لابني عن حظيتي . واطلب أنت ما تشاء ، ذهباً ، أطواقاً ، لآلىء . . .

وهنا حنا أبيقراط رأسه شكراً وقال للملك :

— إني لا أطمع إلا في أن تجعل هذا العهد الذي وضعته عهداً مسؤولاً عند الأطباء . . . « من سقى السم ، وألقى الجنين ، ومنع الحمل ، واجترأ على المريض فليس من شيعتي » .

وخرج أبيقراط يحلم بانتصار عهده الذي صار قسماً إنسانياً ، بينما كانت زوجه الحسناء تحلم باللآلىء والأطواق الذهبية التي وضعتها مستعارة على صدرها ، ثم لم يكمل الحظ فرحتها بها .

إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً

كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – جالساً مع صحبه في المدينة يؤانسهم ويؤانسونه . . . ولكن طيات وجهه التي بدأت تتخدد ، تدل على أن وراءها شيئاً ، شيئاً خفياً تراه الأنظار ، ولكن لا تدركه .

إنه استطاع في سني جهاده أن يجمع القبائل تحت دعوته إلا مكة التي أصبحت كالصخرة المنيعة ، لا تزداد إلا شموخاً كلما أزبدت عليها الأمواج .

كيف حالها اليوم ؟ أما آن لها أن تطوي كبرياءها ، وتغض من عزتها ؟ إنه آمنها على نفسها في عهد مكتوب . وليس وراء العهد شرح ولا اجتهاد . والأنبياء إذا عاهدوا وفوا بعهدهم . ولكن مكة ، صخرة هذه الجزيرة ، إذا لم تؤمن فالإسلام لا يستقر بدونها . لأنها حصن الوثنية ، وبيت الأصنام ، ومعقل العزة الجاهلية . . .

إن هذه الخواطر كانت تساوره ، وتغلب عليه في يقظته ومنامه . . . ولكنه مع ذلك واثق في الله وعهد الله .

إنهم لفي مجلسهم هذا . يدخل عليهم عمرو بن سالم

الخزاعي ، سيد قبيلة خزاعة التي أعطتها قريش العهد والميثاق والأمان ، وأعطاها الرسول من عنده مثل هذا العهد والميثاق... يدخل منشداً بلهجة تستثير الإشفاق والحماسة :

« إن قريشاً أخلفوك الموعدا
هم بيّتونا « بالوتير » هُجَّدا
وقتلونا رُكَّعاً ، وسُجَّدا »

إذاً لقد نكثت وعدها . واستحلت من خزاعة ما عاهدت على حفظه ،فهاج العرين بآساده ولم يزد الرسول على أنه دخل على أهله يأمرهم بأن يجهزوه .

– إلى أين يا محمد ؟ إلى أين يا رسول الله ؟ وأين يريد ؟

كانت عائشة تجيب على هذه الأسئلة : لا أدري . . .

بينما كان الرسول يدعو الله بينه وبين نفسه :

– اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش نبغتها في بلادها . إنه يريد البغتة ، لا خوفاً ولا جبناً ، ولكنه يريد قضاء هذا الأمر بالحسنى .

– أجل ، لقد جاء دور قريش الآن ، وآن أن يطهر الموضع الأول الذي نزل فيه الوحي المطهر .

استيقظت المدينة على كتائب تجهز ، وسيوف تنتضى وأرماح تشرع . المهاجرون فيها يحنون إلى أرضهم التي نازعهم

عليها مشركو مكة ، والأنصار ومن معهم من القبائل يهمون بأن يلبوا دعوة الله .

ولكن مكة غير بدر ، وغير أحد.ثراها لا يسيل فيه دم، وسماؤها التي تندى بالوحي لا تحتمل أن تسمع قعقعة السلاح . وليس في مكة بعد هذا إلا الأهل والأقرباء والأخلاء .

ولذلك بات القوم يتساءلون فيما بينهم :

– هل يصنعها محمد ؟ هل يريق الدم في المواطن التي أمن فيها الوحش والطير ، وتواضع الجاهليون على أن تكون مأمناً للعدو والصديق ، وملجأ للقريب والغريب ؟

وتلك مكة تنام آمنة كعهدها ، ولكن كيف تنام على هدوء واطمئنان ، وقد علمت أن عشرة آلاف سيف ستسطع في وجهها غداً أو بعد غد ؟

إنها تفضل أن تلتجىء إلى رأس الفكر والدهاء فيها « أبي سفيان » فيعدهم خيراً ، فينطلق وحده إلى المدينة ليجدد العهد الذي نقضته قريش ، فيدخل مخالسة على ابنته « أم حبيبة » زوج الرسول ، فيهمُّ بأن يجلس على فراش الرسول ، فتطويه عنه ، فيقول لها :

– يا بنيّة . ما أدري . . . أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟

فتجيبه : إنه رسول الله ، وأنت رجل مشرك .

فجلس صعقاً يتأمل في أن أهله وأقرباءه تناثروا عنه ، وأدرك أن النهاية أصبحت قريبة . ومع هذا ، فليجرب أن يتصل بأصحاب محمد ، لعلهم ينالون له منه الشفاعة ، فيعجزه ذلك لأن مكة التي كان يرئسها، ويتصرف في شؤونها، تهرب من تحت قدميه ، وتدنو من منارة الإسلام ، فيعود أبو سفيان خائباً لينذر نفسه وقومه .

وفي طريق عودته يلقى العباس عم الرسول ، فيراجعه الأمل في النجاة والشفاعة فيبادره العباس :

– من أرى في مثل هذا اليوم ، وفي مثل هذه الساعة ، وعلى مثل هذه الأرض؟أبا سفيان؟الآن أمكنني الله من عدو الله.

فيراوغه أبو سفيان :

– ها جئتك مستشفعاً ، وقد ضاقت علي الأرض بما رحبت .

فيجيبه العباس :

– الآن جئت مستشفعاً ؟ واصباح قريش! والله، لئن دخل الرسول مكة عنوة قبل أن تأتوه فتستأمنوه ، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر ! . .

وأخذ الليل يرتق بأجنحته السوداء ، يخبيء هذه المدينة الذاهلة عن العيون ، بينما أخذت النيران تتوقد على رؤوس البقاع ، ووراء كل كتيبة تتحفز ، وجند عاهدوا الله على

النصر ، أو الموت .

فصاح أبو سفيان مذهولاً :

– ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً .

فيظن من في مكة أن هذه نيران خزاعة قد حمشتها الحرب . ولكن أبا سفيان يدري أن خزاعة وحدها أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

يصيح العباس بأبي سفيان :

– إذا أردت النجاة بنفسك فاركب في عجز هذه البغلة ، ليعلم الناس أني أجرتك . . .

فيركب أبو سفيان وقد أخذه العجب من هذا الجند وهذا السلاح .

– والله يا عباس لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً !

– ويحك يا أبا سفيان . لا تقل : الملك . بل قل : إنها النبوة . النبوة المشرقة التي ستغمر العالم كله .

فيرد أبو سفيان ، ولا تزال دوافع الكبر والعزة الجاهلية تتجاذبه :

– ولكن أنَّى لمكة أن تقابل العرب بأحقادهم ؟

– ولكن لا حقد في الإسلام . إنا أمرنا بألا نقاتل إلا من يقاتلنا . . . أمرنا بألا نقتل في مكة أحداً .

فيقول أبو سفيان بلهفة المحزون . وقد تصور ثرى مكة

يغور تحت هذه الحوافر :

– ما أذل اليوم مكة في انكسارها !

فيجيبه العباس :

– بل قل : ما أعظم مكة في انكسارها ! إنها انتصرت الآن . إنها قبلة الإسلام الذي قضى على كل عبودية ، ومحا كل وثنية .

وهما على ذلك ، كان العباس ينطلق بأبي سفيان على بغلة بين الصفوف ، يقتحم النيران المشتعلة ، والناس يعلمون ولا يعلمون من هذا الذي يجيره العباس في مثل هذه الليلة ، حتى جاء به الرسول : هذا أبو سفيان قد أجرته وأمنته .

فيصمت الرسول طويلاً ، ويلتفت إلى أبي سفيان يكلمه بأناة وهدوء :

– ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟

فيجيب أبو سفيان ، وهو غير منتظر هذا الحلم الذي تسامى عن النفس الإنسانية :

– بأبي أنت وأمي . ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !

ولكنّ العباس يعلم أن أبا سفيان رجل فخر ورئاسة وطمع. فإذا لم يشعر نفسه بالعزة ، حتى في مثل هذا الموضع ، ظل في نفسه خزيان ، مكبوتاً ، فيقول للرسول : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً في هذا اليوم .

فيقول الرسول : أعلنوها عني : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن . . . المحبة وحدها تملك اليوم القلوب. والعفو يفعل ما لا يفعل السيف .

فتخاذل أبو سفيان إزاء هذه السماحة ، وانطوى على نفسه . لأن هذه السماحة سجلت له أشد هزيمة عرفها .

ها هي ذي القبائل تهتز راياتها من فوقها . تموج كالبحر موجاً ، وها هي الخيل ، خيل الله ، كأنما تشم ريح ثرى مكة مع أصحابها . تنازع الفرسان أعنتها ، والنساء تردعها وتلطمها على وجوهها ، لتردها عن وثوبها . والرياح على أكتافها ظمأى إلى الدم الذي يسيل في عروق الرجال .

بدأت الكتائب تنحدر محدقة بجوانب مكة ، كلما مشت راية سأل أبو سفيان العباس عن أهلها ، حتى مرت كتيبة خضراء، لا يرى منها إلا الحدق في الحديد .

فقال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء ؟

ـ ويحك يا أبا سفيان . أتجهل لونها ؟ أتنكر ريحها ؟ ذا رسول الله في المهاجرين والأنصار .

فيقول أبو سفيان على مضض :

ـ ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة .

وما زال الرسول حتى وقف « بذي طوى » معتجراً

برداء أحمر ، يضع رأسه لله حين أكرمه الله بهذا الفتح .
ومكة وسماؤها وأرضها تردد قوله تعالى :

« إذا جاء نصر الله والفتح » . وفجأة يسمع عمر سعداً قائد الأنصار يلوح برايته صائحاً :

– اليوم يوم الملحمة . اليوم تستحل الكعبة .

فيبلغ الرسول هذه الكلمة التي تنذر أهل مكة بصولة يكون لهم فيها الهلاك ، فيقول الرسول لعلي :

– أدركه ، فخذ الراية منه ، وكن أنت الذي تدخل بها ، وقل لأهل مكة « اليوم يوم المرحمة ، اليوم تكسى الكعبة ... » إن الله قد أذهب عنا نخوة الجاهلية ، والثأر الجاهلي .

ولما اطمأنّ الناس خرج الرسول حتى جاء البيت ، فطاف به سبعاً على راحلته ، وأخذ مفتاح الكعبة ، ووقف على بابها يردد :

– لا إله إلا الله وحده . لا شريك له . صدق وعده ؛ ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم التفت إلى معشر قريش ، ولا تزال جراحاتها في نفسه :

– ما ترون أني فاعل بكم ؟

قالوا : أخ كريم ، وابن أخ كريم .

فقال :

– اذهبوا ، فأنتم الطلقاء . إن الله قد حرم مكة ، فهي

حرام من حرام إلى يوم القيامة . فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يقطع فيها شجراً . لم تحلل لأحد كان قبلي ، ولا تحل لأحد يكون بعدي .

فكأنما أرادها الرسول أن تكون جزيرة السلام حين يختبط العالم في الدماء والظلام . . . تلك هي المبادىء السامية تمحو الضغائن ، وتلك الأماكن المقدسة تنعم بالهدوء ، لأنه لا بد لبقعة من بقاع الأرض أن تخلص من العداوة والدماء .

سرى في الأنصار وجوم وخوف من أن يكون الرسول مال إلى مكة عن المدينة لأنها أرضه وبلده ، ولأن العرب لا تدين إلا لمكة . . .

ولكنّ الرسول يطمئنهم :

– معاذ الله . المحيا محياكم والممات مماتكم .

وبعد خمسة عشر يوماً كانت هذه الكتائب الفاتحة تغادر مكة على رأسها الرسول ، إلى المدينة ، بعد أن طوت صفحة في التاريخ ، وافتتحت صفحة لا تطوى ، كأن حنيناً خفياً يدعوه إليها . . . إلى الأرض التي ولد عليها النصر .

إن رسالة مكة انتهت بأن طلعت مشرق النور ، والمدينة تريد أن تضم هذا النور إلى الأبد . . . وتلك قسمة عادلة بين مدينتين كانتا عزيزتين على الرسول والإسلام .

حياة معذبة

في الهزيع الأخير من الليل ، في مضرب من مضارب البدو ، أيقظ الوالد والوالدة صوت غريب . . . هذا الصوت مبعثه من الزاوية التي كان ينام فيها الولد الصغير ، على مهد خشبي باهت اللون ، رث الألواح . هذا الصوت يشبه صفيراً حاداً واسعاً استحال بعد لحظات أنيناً رتيباً ، مـرة يعلو ، ومرة يخفت ، كأنه مقدمة احتضار مرعب ، أخذ بخناق الولد . فليس بينه وبين الاختناق شيء .

أصغى الوالدان إلى الصوت ، وقد وقفت أنفاسهما ، وملك عليهما رعب غريب ، تركهما ذاهلين ، لا يملكان من أمرهما شيئاً .

كان الولد يرجّع سعالاً أبح ، كأنه نباح جرو صغير ، وينتهي السعال باختناق شديد ، يجعل الوالدين جامدين مذعورين .

حبوا على ركبهما ، واقتربا من ولدهما ، وكان الوالد يبحث عن مصباح خفيف أضاءه ، فراح ينشر ضوءه على الستارة ضئيلاً كئيباً ، فيا لشد ما ضربهما الرعب حين رأيا

هذا المخلوق الإنساني تتبدل هيئته سريعاً في زمن قصير . . .
لقد رأيا الموت يحيط بولدهما ، مغيراً ملامحه ، تاركاً على وجهه كل أثر مخيف من آثاره المخيفة . لقد كان الوجه أحمر ، يتوقد بالحمى ، والصغير يتنفس تنفساً متقطعاً ، كأن الحياة ستتركه فجأة مع أحد أنفاسه ، فليس بينه وبين الحياة إلا خيط ما أيسر ما ينقطع . ولم تنقطع أبداً تلك الحشرجة الممزقة ، المتشنجة التي كانت تصاحبه . وسرعان ما عمت الزرقة وجهه. وراحت عيناه الطافحتان دمعاً تغرقان في ذهول مشفق كأنهما تودان أن تخرجا من محجريهما . وخلال ذلك ، كانت يداه تصعدان حيناً ، وتهبطان حيناً على الغطاء الرقيق الذي يحيط بجسده . وحيناً يحملهما إلى عنقه كأنما يريد أن يدفع بهما هذا العارض الذي كاد يخنقه ، أو ينزع هذا الوحش القاسي الذي يحول بينه وبين التنفس .

فتح الوالد فم ولده بملعقة صغيرة ، فوجد داخل الحلق بقعاً بيضاء ، فهز رأسه علامة اليأس من الشفاء . . . ولاحظت الأم بانتباه ، تحاول أن تفسر ملامح وجهه وما انعكس عليها . ولكن كليهما لبث صامتاً ، كأنه يجد من المستحيل أن يعبر عن هول الحالة بأي كلام ، بينما يشعر بذلك الشيء المرعب الذي لا يستطيعان أن يسمياه أو أن يتمثلاه وهو موت الصغير .

وفجأة ، راح كلب ينبح بعيداً ، وبعيداً جداً في مزرعة

مدفونة في بطون السهول . . . إنه ينبح ، ولعله — كما يقولون — ينبح الموت .

إنه عواء شقي كان يتصاعد ، ويرتفع كلحن ، فيه ألم خفي متسرب في حضن الليل المرتعش ، في الهواء ، في الفضاء، تحت النجوم الباردة التي لا تحس ولا تشعر .

آه . ليت شعري ماذا يعبر هذا النباح البائس الشبيه بصياح الألم الإنساني ؟

نظر أحدهما إلى الآخر ، وهما يرتجفان كعصفور من الخوف . . . إنه كان يتمثل دائماً أمامهما . . . ذلك الشيء الذي يسحق الكائنات . لقد شعرا — على غير شعور — بوطأة ذلك الوحش المخيف ، يطوف حول خيمتهما مترقباً فريسته ، منتظراً ساعتها الأخيرة . إنه زارهم راكباً هذه الأنفاس الباردة التي تختنق تحت الخيمة المرتجفة .

على أن ذلك لم يدم إلا قليلاً . . . لأنهما قد تماسكا وبدآ يفكران ماذا يصنعان من أجل صغيرهما ؟ أما الأم فقد استدارت حول ولدها بعزيمة ، واحتضنته بذراعيها الناحلتين ، وضمته إلى صدرها ، كأنما تريد أن تقاسمه من جسدها الحرارة والحياة .

وبعد وهلة غلب على الصغير نوم محموم ، يقلقه خوف غريب ، وتشنج ذاهل موصول .

وأما الرجل فقد غادر الخيمة إلى طريق وحل ، من فوقه نجوم السماء تبص بقسوة كعادتها في الليالي الباردة . وفي لحظة سمع وقع خطوات على الطريق ، فتيقظت فيه عزيمة لا يدري مبعثها ، إلا أنه اعتقد بمصادفة يسوقها القدر لاستنقاذ ولده .

وقع البدوي على هذا العابر ، وهو يصيح :

– أنقذني يا هذا . أنقذ ولدي من الموت .

وقف المسافر جامداً في مكانه ، مأخوذاً بهذا الصوت الذي لم يكن يتوقعه ، ولكنه كان يرتعش من الخوف ، يدل على ذلك جذعه الذي انحنى إلى الوراء ، ويداه اللتان تتحركان بلا إرادة . إنه اعتقد أن هنالك كميناً يريد به الأذى . فكر في أن يفر ، ولكنه لم يجد في الفرار سبيل سلامة . فآثر التماسك والتغلب على الخوف . وفي هذه الأثناء أمسى البدوي مواجهاً له ، وهو يقول بلهجة الذليل المكسور :

– ولدي يموت هناك . . . تعال معي .

اطمأن المسافر قليلاً ، وهدأت عنه أسباب الرعب ، فقال له :

– وماذا هناك ؟ هناك ، ماذا ؟

وكأن هذا التردد لا يزال ينحدر من الخوف الباطن الذي لم يطمئن بعد في قرارة نفسه .

بدأ البدوي يروي للمسافر قصة ، والمسافر منها ما يسمعه ،

ومنها ما لا يسمعه . وأخيراً اقترب من الخيمة التي كان النور يشف من ستائرها إلى الخارج ، ودخل يتأمل طويلاً في هذه المرأة الساكنة سكون التمثال ، والولد النائم على حضنها ، والأستار البالية كأنها خرق ممزقة ، والغطاء المهلهل المثقوب :

تلك لوحة كل ما فيها يدل على البؤس والألم والشقاء .

كان المسافر يهز رأسه باستغراب ، كأنه يبين لهما أنه لا يستطيع أن يساعدهما في شيء .

– لا أقدر على شيء . . . لست بطبيب .

ولكنه أوصى البدوي بأن يذهب إلى إحدى المزارع القريبة يستنهض بعض أهلها ، فلعل هناك من يساعده . وراح يعتذر عن عدم البقاء ، لأن أهله ينتظرون عودته بقلق . . . وانطلق مسرعاً ، لا يجرؤ أن يلقي نظرة وراءه ، كأنما همه كله أن يتناسى هذا اللقاء المرعب .

* * *

والآن عاد الوالدان إلى عزلتهما الموحشة ، فهما متعبان ، يائسان ، كأنهما مخلوقان انقطعا عن مخاليق الحياة . والولد الصغير لا يزال على صدر أمه تحضنه ، وهو يئن أنيناً خفيفاً مستمراً . أنين رتيب ، لا ينقطع ، يخفيه الموت بين الحين والحين .

عاود الوالد البدوي سيره نحو القرية . . . وقف عند

البيت الأول ، يطرق نوافذه طرقاً مزعجاً عنيفاً ، كأنما وثب في صدره حقد كلب يأكل نفسه ، على هذه الأشياء الجامدة الصامتة الحاقدة . كان يصيح طارحاً نداءه اليائس في أعماق الليل ، شاعراً بأن تعزية غامضة تصعد في نفسه حين يسمع صدى صوته .

لقد دام ذلك طويلاً . . . وأخيراً سمع حركة في البيت ولمح نوراً ينعكس على ستائر النوافذ الزجاجية ، وأصغى إلى خطى تقترب منه . . .

– من الطارق ؟

فأجابه البدوي :

– افتح بربك . هنا من يكاد يموت برداً .

ولكن أطفىء النور ، وسكتت الحركة ، وأغلق الباب الداخلي ، وساد السكون . إلا أن شيخاً قروياً ظهر في أقصى الطريق ، برأس هزيل ، تحت شعر أبيض ، مشعث .

راح البدوي يقص عليه قصة ، بما يفيد وبما لا يفيد ، والشيخ يسمعه بانتباه ، حتى إذا انتهى استأذنه أن يلبس ثيابه ثم يصطحبه إلى خيمته .

انطلقا نحو الخيمة ، وطول الطريق يتساءل الوالد بنفسه عن مدى مساعدة هذا الشيخ له ، وهو – على رغم وجود هذا الشيخ معه – كان يشعر بأنه وحده دائماً ، غارق في الذهول الغريب

الذي يملك عليه .

دخلا الخيمة . . . فوجدا أن الولد لم يبق منه إلا نفس في نفس ، نفس ضعيف يخرج بعناء من شفتيه البنفسجيتين .

عند ذلك نصح الشيخ صاحبه بأن يدعو طبيباً ، وأعطاه اسم الطبيب ، وحدد له موقع المزرعة ، التي لا تبعد عنه أكثر من ميلين . ولكن عليه أن يجوز منحدراً وعراً ، ومسلكاً وسط الغابة . . . وأمره أن يذهب الآن ، لأن كل دقيقة أغلى من أختها . وقد كان يود أن يرافقه لكن شيخوخته لا تقدر على ذلك .

مشى الوالد ، وكان طريقه في البدء سهلاً ، ثم بدأ الوعر يمتد أمامه بدون أن يشعر ، وهو يرى – في أعماق شقاوته – خيطاً من خيوط الأمل . وفي اللحظة نفسها انفتل إلى الوراء ، فشاهد في أعماق الوادي نفس النور الضعيف الذي ينعكس في الخيمة ، فزاده ذلك إلحاحاً في المسير . ولكن رويداً رويداً بدأ الطريق يتعاسر عليه . ومن غريب المصادفات، أن الطريق قد استحال ذلك اليوم ساقية لغزارة المطر ، فكان يضطر إلى أن يخوض في الماء ، ولكن ما هم ذلك ؟ وهو يريد أن يبلغ المرتفع بأية حيلة ، فكان يمشي تارة ، وتارة يزحف، وتارة يستعين بأصابعه على التسلق . ومرة يتقدم ومرة يعثر . وتدل الجراحات في جسمه على مدى ما عاناه في تلك الليلة .

وأخيراً بلغ المرتفع . . . فبدأت الغابة ، ولكنه تذكر كيف أرشده الشيخ إلى معالم الدرب . . . وما زال حتى وصل، وكانت أضواء النجوم الباهتة تتخلل الغصون ، فتزيدها ظلالاً متطاولة مرعبة .

خشخشة مبهمة بين الأوراق اليابسة تيقظت في أعماق الغابة تحت أنفاس من الريح قصيرة . فراح يترنح تارة ، وتارة يسقط . إنه يلوح أمام عينيه أن حشرجة ولده الأخيرة تتهادى مع هذه الأنفاس التائهة .

ولما كان الطريق طويلاً ، والوصول إليه أطول ، شاهد حين خروجه من الغابة في الليل ، السقوف السود ، وقناطر البيوت البيض ، وبيت الإنسان الذي سينقذ ولده .

إن حركة جعلته يهتز ، وألقته في إحدى الحفر كحيوان جريح هائم على وجهه . . . ولكنه نهض متثاقلاً وغير متثاقل.

* * *

وفي النهاية انبسط أمامه طريق أبيض في ظلمات الليل،فسار عليه مسرعاً ، لا يلوي على شيء .

يا للهول ! إنه لمح خيمة سوداء ، ممدودة في الليل ، ترتجف تحت نور باهت . . . إن هذا الضائع عاد إلى خيمته ، ليرى صغيره قد مات ، ويسمع الأم التي انتحت زاوية من زوايا الخيمة ، وعيناها جامدتان ، ووجهها وحشي ، ترسل

النواح عالياً .

وفي الصباح كان الوالدان يقتلعان الخيمة ، ويعاودان السير وحدهما على الطريق الطويل .

أسفاه ! ليس لهم في مدينة الأحياء بيوت ينزلونها ، ولا في مدينة الأموات قبور يعيشون فيها بالذكرى .

من يوم البويب إلى يوم بور سعيد

لقد كانت هزيمة العرب – على جسر الفرات – هزيمة موئلة ، ولكن القائد العربي المثنى لا يعترف بهذه الهزيمة ، ولا ينام على الأذى . . .

أخذ يعد العدة الكافية ليوم الثأر ، والانتقام من أعدائه الفرس لقتلى العرب الذين شرق بهم نهر الفرات على سعته ، وكانت الإمدادات تأتي تباعاً من أطراف الجزيرة العربية وأوساطها ، حتى تحرك أهل الردة من سكونهم ، وأقبلوا يلبون نداء الثأر مراعاة للحميَّة العربية ... وكأنما وقف العرب جميعهم في جانب ، والفارسية كلها في جانب ، ينتظرون يوم الفصل ، وما هو بالهزل . فإما أن يقدر للعربية أن تنطلق من حدود رمالها الخالمة بالانطلاق ، وإما أن تقبع في مواطنها ، وترتد إلى حدودها حسيرة ذليلة .

دخل على المثنى أنس بن هلال ، والصليب يتدلى في عنقه ، وقال له :

– إن قومي يريدون أن يلحقوا بك ، فهل ما يمنع ذلك؟

أجابه المثنى :

– لا يمنعهم شيء إذا جاءوا برضاهم . . .

قال أنس :

– إنهم على النصرانية ، وأنتم على الإسلام . . .

فقال المثنى :

– إن هذا اليوم يوم العرب الأكبر ، فإذا كنتم عرباً فإن الواجب يدعوكم لمناصرة إخوانكم ، سواء أكنتم نصارى أو مسلمين .

فضحك أنس وقال :

– وهل من شك في عروبتنا ؟ إننا والله من العرب العاربة ، والعرب المستعربة ، لا يفرض الدم علينا إلا أن نقف بجانب قومنا .

فقال المثنى :

– أهلاً بإخوة الدم ! لكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، هذه معسكراتنا وخيامنا فاختلطوا بنا !

ومضى أنس إلى استنفار قومه النصارى ، ليقاتلوا مع إخوانهم المسلمين في هذا اليوم الموعود .

راحت المعسكرات تغلي بالغزاة القادمين ، وكلهم أمانيّ ثائرة ، ترتقب يوم اللقاء ، ليمحوا هزيمة الأمس .

كان اللقاء عند « البويب » وكان الفرس مع قائدهم « مهران » وراء نهر الفرات .

أرسل مهران إلى المثنى :

- إما أن تعبر إلينا ، وإما أن نعبر إليك .

فأجاب المثنى ، وهو يتقي أن يقع في الخطيئة السابقة :

- بل اعبروا !

فعبر مهران وجنده إلى ناحية من شط الفرات ، وبذلك تقابل الخصمان ، وهما ينتظران اللقاء .

كان اليوم من أيام رمضان ، فخاف المثنى على جنده أن يضعفهم الصوم عن لقاء عدوهم ، فخطب في قومه :

- إنكم صوّام ، والصوم مضعفة للجسد ، وإني أرى من الرأي أن تفطروا ، فتقووا بالطعام على عدوكم. . . وافطروا .

مشى المثنى بين جنده يرعاهم، ويحضهم، فأبصر رجلاً يتحفز ، ويريد أن ينقض على العدو وحده ، فسأل :

- ما بال هذا ؟

قالوا :

- هو ممن فر يوم الجسر،وهو يريد أن يستقتل ليمحوالعار.

فقرعه المثنى بالرمح وقال له :

- لا أبا لك ! الزم موقفك ! فإذا أتاك عدوك فاغنه عن صاحبك ، ولا تستقتل !

واستقر الرجل هادئاً ، ولزم الصف .

رأى المثنى أعداءه يقبلون في ثلاثة صفوف ، مع كل

صف فيل ، فراح يطوف في صفوفه ، ويعهد إليهم بعهده ، وهو على فرسه الشموس ، ووقف على الرايات راية راية ، يحضهم ، ويأمرهم بأمره ، ويهزهم بأحسن ما فيهم ، ويقول لهـم :

– إني لأرجو أن تؤتى العرب النصر اليوم من قبلكم ، والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم .

ثم حملوا ، وحمل العدو . . .

حقاً ، لقد كانت حملة الفرس على العرب شديدة ، حتى اختلت بها بعض صفوفهم ، ولم يعد هنالك إلا بريق سيوف ، يغلب حيناً على الغبار الثائر ، فينبىء أن تحته رجالاً يتلاحمون. وخلال ذلك كان المثنى ينتقل من صف إلى صف ، أو يرسل رسوله الخاص إلى الناحية الضعيفة ، يقول لهم :

– إن الأمير يقرأ عليكم السلام. لا تفضحوا العرب اليوم!

طال القتال على غير عادته ، ولم ينل واحد من المقاتلين غايته ، فرأى المثنى أن يحمل على قائد الفرس ، لعله ينال منه مقتلاً ، وبه تحق الهزيمة على الفرس .

التفت خلفه ، فوجد « أنس بن هلال » يمعن تقتيلاً في الفرس ، على فرس يتخطى الجثث وثباً . فقال له :

– أنت هنا يا أنس في صميم المعركة !

أجابه أنس :

– وأين تريد أن أكون ؟ لا رآني الله يصيب العدو من قومي وأهلي ، وأنا في نجوة عنهم !

قال المثنى :

– بورك فيك يا أخي العربي ! ولكني طالب منك مطلباً .

قال أنس :

– ما أهون ما تطلب ! لك الروح يا مثنى !

فأجابه المثنى :

– إنك امرؤ عربي ، وان لم تكن على ديننا ، والعروبة تقضي عليك بأن تكون وفياً لها . هذا قائد الفرس « مهران » سيبقى جيشه حياً ما دام هو حياً . إنني سأحمل عليه ، فاحمل معي يا أنس ، واحم ظهري !

راح الجوادان مصطحبين كأنهما في يوم رهان ، والغاية راية مهران ، والفارسان كلاهما يحدث نفسه بقتل مهران ، فما زاد ذلك القتال إلا عنفاً ، وكأنما أدرك مهران قصد العرب ، فاحتمى بقلب جيشه ، فتمهل المثنى خشية أن يصاب ، فيضطرب أمر العرب بعده ، والتفت إلى أنس ، فلم يقع له على أثر ، فأدرك أنه ذهب طعاماً للسيوف .

وفجأة رأى المثنى أخاه مسعود بن حارثة ، وقد سقط عن جواده ، يشخب دمه من جرح عميق ، وقد تضعضع من معه ، فركض إلى استلام رايته ، فرآه يجود بنفسه ، وهو

يقول لمن حوله :

– يا معاشر بكر ، ارفعوا رايتكم ، رفعكم الله ، ولا يهولنكم مصرعي !

تلك معركة لم تعرف تلك الأرض ملحمة مثلها ، حتى كأن الخيل اشتركت فيها ، فأخذ يقتل بعضها بعضاً ، وكل فريق مستقتل ، يدرك أن الهزيمة معناها الفناء .

في لحظة من تلك اللحظات الخاطفة التي يسطر فيها التاريخ أمراً عجيباً ، طلع على العرب فارس علق برمحه رأساً ، وهو يصيح :

– أنا أنس بن هلال ، والرأس رأس مهران ، والفرس فرس مهران .

فاشتد العرب على الفرس ، وطمعوا في سحقهم ، وأوجعوا في قلبهم ، وما هي إلا كرة حتى انكفأ الفرس نحو الجسر يريدون النجاة ، ولكن المثنى سبقهم ، وأخذ طريقهم ، حتى انتهوا جثثاً على الشاطىء الخالد .

• • •

لما فرغوا من القتال جلس المثنى للناس من بعد الفراغ ، يحدثهم عن المعركة ويحدثونه ، وكأنما المعركة أصبحت حلماً بعيد القرار ، وحديثاً يطيب استذكاره والتسلي به .

التفت المثنى إلى أحد الجلاس ، وقال له :

– أخبرني عنك !

فقال له الرجل :

– إني قتلت رجلاً فوجدت منه رائحة المسك ، فقلت : هذا مهران ، ورجوت أن يكون إياه ، فإذا هو صاحب خيلهم ، فوالله ما رأيته شيئاً في عيني .

ضحك المثنى وقال :

– أين عنك مهران ؟ لقد نال شرف قتله ذلك الأمير النصراني أنس بن هلال ، جزاه الله خيراً عن العرب . والله ، لقد رأيته ينطلق عني كالسهم ، فلا يستقر إلا في الغبار الذي يظلل مهران ، ثم لا أسمع إلا أن مهران قتيل ، وفرسه جاء بها أنس . ولكن أين أنس ؟ فتشوا عن جثته لنضمها إلى جثث شهدائنا ! إني لأرجو الله أن يغفر له بهذه الشهادة .

ثم التفت المثنى إلى آخر ، وسأله :

– وماذا صنعت أنت ؟

فقال :

– لما رأيت احتدام الحرب قلت لأصحابي : خذوا بتروسكم فإنهم شادون عليكم ، فاصبروا لشدتين منهم ، وأنا كفيل لكم بالظفر في الثالثة ، فما كذب الله كفالتي .

والتفت المثنى إلى عرفجة أحد أبطال المعركة :

– وأنت يا عرفجة ؟

فأجابه :

– سقنا كتيبة منهم إلى الفرات ، وقلنا لنغرقها انتقاماً لغرقانا في موقعة الجسر ، قاتلونا وقاتلناهم ، حتى قال بعض قومي : لو أخرت رايتك ! فقلت والله لا تتأخر رايتي حتى الموت ! وكان لنا ما أردنا .

وهنا تحرك المثنى ، وقد اهتزت نفسه لهذه البطولات الكريمة وقال :

– قد قاتلتُ العرب والعجم في الجاهلية والإسلام . والله ، لمئة من العجم في الجاهلية كانوا أشد علي من ألف من العرب . ولمئة اليوم من العرب أشد علي من ألف من العجم ، إن الله أذهب قوتهم ، وأوهن كيدهم ، فلا يروعنكم عددهم ، ولا نبالهم ، ولا سلاحهم ، فإنهم إذا فقدوها كانوا كالبهائم ، أينما وجهتموها اتجهت. لقد فقدت أخي في المعركة ، ورجالاً صدقوا الله ما عاهدوا عليه . ولكن الذي يهوّن علي حزني أنهم شهدوا موقعة البويب ، وأقدموا ولم يجزعوا ، وصبروا وانتصروا .

* * *

بحثوا عن جثة أنس بن هلال ليدفنوها مع شهدائهم ، فلم يقعوا لها على أثر . ولكنهم ، بعد أن أعياهم البحث ، اعترفوا بأنها ستبقى حية في صدورهم . – ستبقى حية في

صدورهم . والصدور أبقى من القبور . وكان الناس يتناقلون خبر هذا البطل الذي كسب المعركة ، وفقد حياته وجثته . ولكن روحه ظلت تسيطر على البويب لأنه كان بطل المعركة فيها .

وتدور الأيام ، وتتقلب الحوادث على هذه الأرض التي كتب لها أن تغتسل بين الحين والحين بدمائها الزكية ، وتبقى روح أنس بن هلال مشعلاً لروح العروبة التي لا تعرف تفريقاً ولا تمييزاً . وتظل هذه الروح مضطربة في الأفق الأعلى ، تبحث عن أخت لها في الأرض ، حتى تجدها في روح « جول جمال » وما كان « جول جمال » إلا أخاً في العروبة لأنس ابن هلال .

بدأت أمواج بور سعيد تضطرب على غير عادتها ، ولو تركت هذه الأمواج لنامت . . . ولكن عمالقة من أساطيل البحار كانت تقترب لتمكن للشر انتصاراً في بقعة بريئة . وليس على البر إلا قطع من لحوم حولها الإيمان إلى جبال من الفولاذ ، وبأيديها بنادق صغيرة تهول بها ضد تلك المدافع المتطاولة ، وبين هذه القطع اللحمية قطعتان كريمتان اسمهما في مصطلح الإنسان : جول جمال ونخلة سكاف .

التفت جول إلى رفيقه :

— ما رأيك بميتة هي الحياة الخالدة كلها ؟

أجاب نخلة :

– ماذا تعني بهذه الميتة ؟

قال جول :

– ألم تسمع بالطوربيد الحي ؟

أجابه رفيقه نخلة :

– ويحك ماذا تعني ؟

قال جول :

– إنني أريد أن أجعل من حياتي المنطفئة مشعلاً للتضحية لا ينطفىء ، وبذلك يكون ضوءاً لكل قافلة من وطني تريد الحرية .

قال نخلة :

– لعلك تريد أن تسخر كعادتك !

أجاب جمّال :

– لست بساخر الآن . إنني أردُ لوطني الأمانة .

وفي هذه الأثناء كانت البارجة « جان بارت » تتهادى كعملاق في أطراف الأفق ، تتحدى البر ، وبور سعيد ، ومصر ، والعالم كله .

انتفض جول كالملدوغ وقال :

– هيّا ، دنت الساعة .

وكان هنالك صوت ينادي الشباب :

– من يعاهد على الموت ؟

تقدم جول جمّال ، واعترى الجميع وجوم حزين ، كأنما أشفقوا على هذا الفتى أن يصير هباء بعد لحظات في البحر ، ولكنه تقدم ، وعزم . . .

وفي تلك اللحظة التي كانت الطبيعة تهلل فيها لهذه الأصوات الهادرة التي تنطلق من كل مكان ، من ظهر الأرض وبطنها ، ومن أعماق السماء وجوانبها ، وكان البحر يستعيد ذكرياته غير البعيدة عن تلك السفن التي ابتلعها ، والجثث التي قذفها ... راح سرب من الطرابيد ، وبينها طوربيد حي يقذف به جول جمّال في عباب الماء ، مستهدفاً قلب البارجة ، ومن حوله أمواج تثيرها القذائف كالجبال ، فما يزداد إلا ضراوة وشدّة.

وفجأة ، زعق هدير تعانق فيه السواد واللهيب ، ثم تبعه أشلاء من الحديد ، ثم انحط على الكل سكون الموت ، ثم انجلى المشهد عن بارجة جبارة تلتف بالنار حيناً ، وبالدخان حيناً ، والبحر ينتظر فريسته . . .

هلل من على الشاطىء وكبر لهذا الفوز الذي لم يحقق مثله جبابرة البحار ، ولكن أين جول جمّال ؟

التفت القائد ، وهو يمسح دمعة الحزن والظفر :

– لا . . . لا تبحثوا عن جثة جول جمّال ، لأن روحه لم ترد أن تستقر في مكان محدود ، فلها البحر كلّه بدون

حدود ... إنه بعد اليوم المنارة التي لا تنطفىء للفدائيين الذين يقهرون الموت .

وهكذا ضم البحر هذه الجثة التي تناثرت في أعماقه لتعانق جثة أنس بن هلال على شاطىء البويب من أجل أمة عربية واحدة . : .

والد ينتظر

كانت مدينة « أوتاوه » في عيد الفصح تغرق في موجة عارمة من الفرح والرقص . . . فتيانها وفتياتها قد انقلبت أرجلهم دواليب تدور وتدور ، منسجمة تارة ، وتارة غير منسجمة ، على ألحان خليطة عجيبة تريد أن تحيل الأقدام إلى أجنحة تنهض بأصحابها إلى أعلى من الأرض . وعلى وجوههم وعيونهم لفتات جارحة، غامضة، تتمثل فيها رغبات الانطلاق من قيود وهمية إلى حياة شفافة ، عارية بلذاتها وشهواتها . وشيبها وعجائزها يقحمون أنفسهم في هذه الدوامة التي لا تهدأ ؛ تجرفهم إليها طوعاً أو كرهاً لأنها – عندهم – عيد المصباح الملتهب في ساعة الاحتضار ، فيدورون مع من يدورون بأذرع تكاد تتهاوى ، وعيون يبص فيها الوميض الأخير قبل الانطفاء ، ويختلطون بهذه الأجساد النارية ، كأنما يُدفئون بها جلودهم الباردة المجعدة بعد أن برد على ملامسها الزمـــان .

ألا ما لهذا الشيخ الوقور الذي يحمل على كتفه تكاليف سبعين عاماً من الحياة ! يكلف نفسه الخروج من بيته الهادىء

إلى هذا الجو الذي يعوي بالضجيج ، ويضطرب بالحركة . إنه يدخل بخطى متأنية فناء المحطة الذي كان ساحة للراقصين واللاعبين . وفناء المحطة هو أغنى قطعة في أرض المدينة ، لأنه محطة الوداع واللقاء . محطة المسافرين والراحلين إلى الأبد . ومحطة العائدين إلى وطنهم وأهليهم . . . وهو محطة المودعين والمستقبلين . تتلاشى في جوه ضحكات اللقاء ، وتنشف على أرضه دموع الفراق .

إنه يجيل طرفه قريباً ، وتحسبه بعيداً ... إنه يمشي حتى المنتهى ، ثم يعود من حيث أتى . لعله ينتظر ابناً له يحمله القطار ، أو حفيداً مقبلاً لزيارته ، ولكنه لا ينتظر أحداً ، لأنه يتفرس في كل وجه ، ويقف عند كل عابر . إنه ينتظر كل الناس ، ولا ينتظر أحداً . والناس الذين يمر بهم يعرفونه ، ويحيونه باحترام . ولكن ، أية تحية هذه ؟ إنهم لا يكادون ينصرفون عنه حتى تنتهي التحية بنغمة مقطوعة مشوبة بلذعة عميقة مؤلمة :

— مسكين « سوترلاند » إنه هنا للمرة السادسة !

* * *

إنه « سوترلاند » الرجل العجوز الذي قضى عمره في مقاولات البناء في المدينة ، يأتي المحطة للمرة السادسة باحثاً عن ولده .

لم يكن له غير هذا الولد ، في حياته الطويلة ، ودعه في هذا المكان ، منذ عشر سنوات . وكل شيء كان عند وداعه ، لا يزال في عينيه يحمل إليه صورة ولده ، حاملاً حقيبته إلى القطار مع من احتملهم القطار . . . فلماذا يذهب الأشخاص وتبقى الأشياء حية بذكرياتهم ؟

إنه يمشي جيئة وذهاباً على الرصيف ، لا يبالي بهذا القصف الذي يدوي حوله ، يتكلف أن يرفع قامته ، وهو ذو القامة الفارعة ، لأنه يريد أن يحيط ناظره بكل شيء كلوحة واحدة ، دون أن يفوته جزء من أجزائها الشتيتة .

إنه لا يزال يتذكر كيف استعرت الحرب في الغرب ، وأن بلاده « كندا » دعيت إليها ، وأن الشباب سارع إلى ميادين القتال التي كانت متفرقة في أطراف الأرض ، ولعل أكثرهم لا يدري لماذا يناضل ؟

لقد كان ابنه واحداً من هؤلاء الشباب المفتونين بالنضال ، النضال من أجل الحرية ، من أجل العالم الحر ؟ هذا العالم الحر الذي لا يرتوي إلا بالدم ، ولا يقيم مثله العليا إلا على الدم .

لقد كان طياراً ، وسيكون واجب طيارته أن تصب النار وتزرع الويل في المدن التي رفعتها الإنسانية بعرقها ، وجبلت ترابها بدمها . . . ثم تترنح به طيارته فوق أعمدة من اللهب والدخان ، تطمئن قليلاً قليلاً على أشلاء ممزقة وأكوام من

رماد ، وهي تعوي عواء الكلب المسعور .

هذه هي الحياة الجديدة التي كان يحياها ابنه في الحرب . كان كل دمار يزيده شغفاً بدمار آخر ، كالحيوان المفترس الذي يلعق دم فريسته وعينه الجائعة تدمع نهماً لدم آخر في فريسة ثانية .

كانت مكاتيبه تتوالى على والده بانتظام ، تطمئنه بسلامته من كل غارة يذهب إليها ، وهو لا يدري متى تأتي الغارة التي لن يعود منها سالماً . وكان كل مكتوب يحمل إلى أبيه الهزة والرعشة قبل أن تأتي عينه على السطر الأخير . . . وما هو السطر الأخير ؟ « لقد قمنا بغارة ليلية على العدو . . . ضربنا وأحرقنا وأسقطنا وعدنا . . . »

– إلى متى تثابر الحياة على هذا النسق ؟ إلى متى تبقى هذه الرحى تدور ؟ أما من نهاية ؟

لأول مرة ساءل الولد نفسه هذا السؤال ، ولأول مرة تتبدل الأجوبة في نفسه .

– أنضرب غيرنا لأن غيرنا لا يستطيع أن يضربنا ؟ ماذا تصنع أمهات بلادي لو رأت هذه الفظائع في هذه الأمهات ؟

إنه بات يفضل أن يُقتل في إحدى الغارات بدلاً من أن يكمل مهنة الجزار .

• • •

ولا ينسى الوالد يوماً دعي فيه إلى مكتب الاستخبارات ، حيث ناولوه كتاباً ليس فيه خط ولده . أخذ المكتوب ، وفتحه بأصابع مرتعشة . . . « إنه قُتل بطلاً جريئاً بينما كان يحوم بطائرته فوق مصانع العدو لتدميرها . فليعتز الآن بهذا المصير الذي لقيه ولده دفاعاً عن حرية بلاده » .

هذه هي الجملة الأخيرة التي كانت التعزية التي كانت تردد في كل بيت ، على جثة كل فقيد . . . وما كان للوالد إلا أن يتجلد ، ويقول في نفسه :

– لقد توقعت له هذا المصير . . . لأنه لم يكن إلا واحداً من هؤلاء الذين ينعاهم الناعي كل يوم .

ولكنه يتساءل أيضاً :

– أحقاً مات من أجل الحرية ؟ كم مرة يجب على الناس أن يموتوا من أجل الحرية !

* * *

لعل القصة انتهت مع الوالد العجوز ... ولكنها في الحقيقة – كما يقول – بدأت عنده .

« تلقيت مصرع ولدي بصبر وجلد ، وكانت الذكريات الحية تدفعني إلى أن أقف على كل مكان يحمل ريح ولدي ، أتنشق منه التعزية التي ترتاح إليها نفسي . في صباح عيد الفصح من عام ١٩٤٨ شعرت بدافع خفي يجذبني إلى المحطة . حاولت

أن أتردد . . . أن أقف . . . لكنه كان يدفعني بسياط تلهب إرادتي . . . غادرت بيتي ، وأنا لا أدري لماذا أغادره ؟ ماذا أمامي ؟ من ينتظرني ؟ لا أدري . . . وخلال ذلك كانت تنزلق بي قدماي على الطريق . . . الطريق الأخير الذي عبر منه ولدي للمرة الأخيرة . بلغت المحطة ، ورحت أتلفت إلى كل ناحية فيها . كم كنت موضوعاً للسخرية لو درى أحد بأني أبحث عن شيء . . . ولا شيء . . . ولكن أحداً لن يرتاب بي بين هذه الجموع المحتشدة التي تصعد وتهبط في جداول متعاكسة متدافعة من البشر .

في لمحة عين لمحته . . . ولدي يرنو إلي من بعيد ، كأنه على موعد معي بهذا اللقاء . نعم . . . إنه ابني نفسه ، ابني الذي نعوه إلي منذ سنين ، رأيته هنا على مدى نظرة مني . . . لقد نظر هو إلي ، ونظرت أنا إليه . . . لكنه لم يقل شيئاً . . . وأنا هممت بأن أقول ، ولكن هول المفاجأة أخرسني . ولكن كلانا كان يقول شيئاً ، وكان يفكر ، وكأنه يتساءل :

– لقد رأيت وجهك من قبل . . .

جمدت في مكاني مصعوقاً ، ورفعت ساقي ، فكانت كأنها شلاء . حتى إذا هدأت قليلاً حملت نفسي صوب الجهة التي كان فيها ولدي . . . لكنه لم يلبث أن توارى عن عيني كما ظهر .

– رباه ! ألم يرني كما رأيته ؟ ألم يجرب أن يخطو نحوي ؟ أتوهمني توهماً حين رآني ؟ ثم راح في طريقه يبحث عني في صورة أخرى .

تركت المحطة بعد منتصف الليل ، بعدما يئست من لقائه في هذا المكان . ومنذ ذلك الحين اعتقدت أن ولدي حي لم يمت . . . أقول للناس إني رأيته حياً ، فيقولون لي : لو كان حياً كما تزعم لعاد مع الذين عادوا بعد انتهاء الحرب . ولكني رأيته بأم عيني ، فكيف أكذب عيني ؟ رأيته يرنو إلي بلهفة الحبيب البعيد ، الأسير الذي تمنعه قيوده أن يتقدم . قد يكون مصاباً بفقد الذاكرة فلم يعد يذكرني ، ولم يعد يعرف أهله . فهو كالطائر الغريب الذي يظن أن كل وكر وكره ، وليس له في الحقيقة منها وكر واحد . . . إنه حي يتمثل أمامي في كل لحظة كما تمثل لي في تلك اللحظة . ولكن بيننا ذلك النسيان العميق . وعندما أراه سأحاول أن أعيده إلى ذلك الماضي الذي انقطع عنه .

إنني أراه حياً ، وأنتم ترونه ميتاً . إن الزمن الذي يفتش فيه أحدنا عن الآخر لا يمكن أن يكون موتاً . . . »

هذه هي نهاية قصة الوالد العجوز الذي درت المدينة بقصته ، وحزنت لمأساة ولده الذي عاد ليحيا مأساة ثانية لا تنتهي في صدر الوالد .

في صباح كل عيد « فصح » يرى أهل المدينة هذا الوالد الجريح يلبس أحسن ما عنده ، ويتجه نحو فناء المحطة ، حيث يقتحم أعياد الناس ولا يدخلها . ويلبث هناك ليله ونهاره يحدد الطرف في الزاوية التي خيل إليه أن ابنه أطل عليه منها . وكلما صفّر قطار خفق قلبه وراح ينتظر ، حتى إذا انقطع رجاؤه عاد على الطريق ذاته ، وهو يقول بينه وبين نفسه :

– سأظل آتي هذا المكان في كل عيد ما حييت . . . إن ابني ما يزال حياً ، وسأراه هنا في يوم من الأيام .

ثم ينطلق الوالد ليتوارى مع هواجس نفسه . والناس الذين تعودوا أن يروه ، منهم من يقول :

– يقول عن ولده إنه مصاب بفقد الذاكرة . وفي الحقيقة هو المصاب .

ومن يقول :

– دعوه ينتظر ! ربما كان على حق . . . إنه سعيد بهذا الانتظار .

الطفل الغريق

هل يشعر الإنسان أحياناً بما يخبىء له القدر ؟ وهل يستطيع إذا شعر به أن يفر منه ، ويسلم من حبائله المحكمة ؟

كان القدر يحوم حول بيت هذه الأسرة، ويميز بابه من بين أبواب كثيرة في العمارة الشاهقة ، باب أسرة غريبة تسكن في بيت من بيوت هذه المدينة المائمة ، المتراحمة التي ترقص على كف الحياة والموت .

ولكن كيف يحوم حوله ، ويطرق بابه ؟ إنهم لا يرون شخصه ، ولا يحسون وطء أقدامه حين يمشي ، ولا يسمعون طرق يديه على الباب ، ولا يلمحون عينيه الغائرتين المخيفتين حين تحملقان وتقعان على طفل صغير في السابعة من عمره .

كان ذلك الطفل ، تلك الليلة ، كزهرة ناضرة متفتحة لم تعرف زهرة أخرى مثل ألوانها . ولا تدري لماذا تكون الزهرة ، قبل سقوطها ، في أبهى ألوانها ، ولماذا يكون اللون الذي يجود به السراج المحتضر هو اللون الجميل ؟

كانت أمه تدعوه إلى النوم في سريره. وهو، على غير عادته ، لا يريد النوم ، كأنما عينه تأكل النعاس . وكلما

أهابت به أمه ازداد اقتراباً منها ، يلقي بنفسه على صدرها ، ويشمها ، ويلثمها كأنه في موقف وداع طويل يحس به ولا يعرفه ، وهي ، أحياناً ، ترد له قبلاته ولا تعرف الدافع له إلى ذلك ، كما تحس في نفسها وجداً باطناً يدفعها إلى أن تبادله قبلاتها ، وأحياناً تهزه وتزجره لينام ، وينهض مبكراً إلى مدرسته .

وبينهما ذلك الهر الأسود الذي كان يشب على الصغير ملاعباً ، ويترنح على حضنه بخلاف عادته ، لا يكاد يتركه تلك الليلة ، حتى إذا هب الصغير إلى سريره سبقه إليه وتوسط فراشه ، ومد ذراعيه الليتين ليعانقه بهما .

تسللت أشعة الفجر إلى نوافذ الغرفة تتراكض إلى ميعاد ، والصغير لا يزال نائماً بالقرب من هره الوديع الذي لا يزال جاثماً ، ملاصقاً صدره ، كأن لم تبزغ عليهما شمس ، ولم يتألق صباح .

استفاقت الأم ، وعجبت لنوم صغيرها وسكون الهر بجانبه ، واضطربت بين أن تتركه لغفوته أو تنهضه لمدرسته ، ولكنها آثرت أن يداعب النوم جفنيه حتى ينتهي .

في تلك اللحظة سمعت الأم ضحكات عصبية من الطفل الصغير ، وهو يهتف بين النوم واليقظة : ــ السمكات الصغار ــ أين هن ؟

أقبلت أمه عليه :

– ولدي أية سمكات ؟ قم إلى مدرستك . لم يتخلف أحد سواك يا وحيد .

ضحك الصغير ، وقال بجد :

– إنك لم تريهن كما رأيتهن ينزلقن على الشط الصغير . وإحداهن حاولت أن تدغدغ قدمي الممدودة في الماء .

أدركت الأم أن صغيرها كان في حلم حمله إلى غدير ماء يعج بالأسماك . وعالم الطفولة لا يفصل بين حقائقه وأحلامه شيء . . . قبلته وحثته على الإسراع . وعللته قائلة :

– وحق عينيك لآتينك اليوم بالسمكات الصغار .

* * *

انقلب إلى المدرسة كعادته ، وخيـاله مشحون بتلك السمكات الفاتنات ، وتذكر جدران المدرسة أنه في ذلك النهار كان يلعب ثائراً ، مهتاجاً ، ويقلد السمكات في انزلاقهن ، ويداعب رفيقاً ويضاحك آخر .

انفرد به رفيق من عمره، استمع منه إلى قصة السمكات، وقال له :

– هل تزور هذه السمكات على شط النهر عند استراحة الظهيرة ؟ ولكن . . . لا تقل لأحد من أمرنا شيئاً .

انطلق الصغيران عند الظهيرة إلى الحديقة العامة ، حيث

النهر الصغير يشقها ، وكانت الحديقة مهجورة كأنها في حال وجد عميق من التأمل ، واقتربا من الشاطىء حيث رأيا النهر شاحباً بين ضفتين عاليتين ، والماء يجري هوناً ، كدراً ، لا يشف عما تحته . وراح الصغير يدنو من الشاطىء كأنه يعرف المكان ، بينما ظل رفيقه بعيداً عنه ، لا يجرؤ أن يدنو .

– هذا هو النهر الذي كان ينساب أمام عيني في حلمي ، ولا بد أن تكون سمكاتي في أعماقه .

إنهن حقاً ، صرن بموقع عينيه ، ولكن ليس لهن ذلك اللون الذهبي الذي تألق في نومه . إنهن صغار ، سود يعلون حيناً ، ويسفلن حيناً ، يتمهلن آناً ويتزلقن آناً . ولكن ماذا يهمه أمرهن ولونهن ؟

أخذ يداعبهن بيده التي مدها إلى الماء كما كان يداعبهن في حلمه . . . وفي هذه اللحظة اتصل الواقع بالحلم ، وعاد هذا الوهم حقيقة محسوسة .

وكان كل لحظة يزداد اقتراباً من عباب الماء ، ليلاحق سمكاته التي تنفر منه حين تحس قبضة يده ، أو تسمع حفيفها في الماء ، بينما رفيقه يدعوه إلى أن يعود إلى الوراء خشية السقوط .

فجأة ، غلب ثقل رأسه عليه فهوى في الماء كالحجر الثقيل وكان الماء أعلى من قامته الصغيرة . فصاح صياح الذعر ، بينما راح الماء يدخل في منافذ وجهه .

سرى الرعب في نفس رفيقه ، وهو لا يدري ماذا يصنع ؟ لقد حاول أن يدنو منه لينتشله ، ولكن الصغير أخذ يبتعد عن الشاطىء ، حتى صار ملك المنحدر . وأكثر ما راعه من منظره أن يراه يرفع رأسه ، ثم يخفضه ، ثم يخبط ثم يسقط ، وقد جحظت عيناه ، وتبدلت ملامح وجهه .

أخذ رفيقه ينادي :

– غريق . غريق .

ولكن أين من يسمعه في تلك الهوة المهجورة ؟ وما هي إلا لحظات حتى غاب الصغير في العباب ، ولم يعد له صوت ، ولا أثر ، بينما ظل النهر يجري ويجري كأنه لم يبتلع أحداً .

وقف الرفيق حائراً في أمره ، لا يستطيع أن يدرك ماذا يصنع ؟ أيدرك رفيقه حياً بعد اليوم ، أم ميتاً ؟ وما الفرق بينه حياً أو ميتاً ؟ كيف ينشلونه الآن ، وكيف يقابل أهله ؟ وهل يظنون أنه قذف به في النهر ؟ أخذ يبكي خوفاً وحزناً ، وهو لا يدري لماذا يبكي ؟ وهو خلال ذلك يتابع نداءه المخنوق : غريق . . .

وكان الناس يسمعونه ، ولا يصدقونه ، فيمضون سائرين ، لا يريدون أن يعبث بهم هذا الصغير . وأخيراً استجاب أحد الناس إلى ندائه ، ونزل حيث أشار إليه ، وبدأ يبحث عمن طواه الماء . . . وفجأة أحس بجسد طري في القاع ، فانتشله

بتلابيب ثيابه إلى الشاطىء . وكان شعره المبلل منسرحاً رقرقاً على جبينه ، ولا تزال بسمة اللقاء مع سمكات النهر تتلامح على ثغره .

– إنه هو . . . هو ، ولكنه يمضي الآن إلى أهله محمولاً على كتف هذا الغريب ، وأمامه الدليل الصغير إلى البيت الذي كان ينتظره على الغداء .

لقد كانت أمه تنتظره . . . وطال انتظارها سدى .

– لماذا تأخر عن ميعاده ؟ أهو في جزاء يؤخره ، وطالما تأخر ؟ أهي الساعة أعلنت الثانية خطأ ؟ ولكن المدرسة أخبرتها أنه انصرف مع رفاقه .

بدأت الهواجس تطغى على صدرها ، وأول ما فاجأها مظهر النهر . إنها لا تستطيع أن ترى النهر . . . أيخونها النهر في ضميرها ؟ والنهر بعبع مخيف عند الأمهات .

ولكن ، ما للهر الأسود يضرب الباب بيديه بين اللحظة واللحظة ، كأنه ينتظر غائباً عزيزاً عليه تخلف عن موعده . ولكن كيف يتلقاه ؟ وكان الغداء على الخوان ينتظر الصغير ، مع سمكات أعدتها الأم لصغيرها ليأكلها هنيئاً .

* * *

طرق الباب بشدة ، وكان تقطيع الطرقات غريباً . فسبق الهر إليه كأنه اشتم شيئاً ، وأخذ يموء مواء غريباً متقطعاً ،

وفتحت الأم لترى ، ثم تسقط على جثة صغيرها غير واعية .

وكان المعزون يرون في المساء جثة مسجاة في سرير صغير ، تحضنه الأزهار المتفتحة والذابلة . وعلى رأس السرير أم صامتة ، متحجرة الدمع ، تعجب العواد بصبرها وصمتها . ولو اطلعوا لعلموا أنها في تلك الساعة كانت في ذهول تتلقى قبلات ولدها في الليلة السابقة ، وهي تشده وتمسك به ، لأن الموت لا يستطيع أن يسحبه منها .

* * *

وعندما خلا السرير من صاحبه ، وانطفأ نور عزيز في حياة البيت كان الهر الأسود يطوف حول السرير ويرسل مواء مؤثراً . ومنذ تلك الليلة يذكرون أن الهر لم يعد يطرق البيت ، ولم يجرؤ أن يدخل غرفة الصغير . . . ولكنهم يسمعون في أعماق الليل الساكن صوتاً كالنحيب ، ثم يغيب .

ـ عجباً ! هل سمع الهر الأسود وحده يد القدر تطرق الباب قبل أن يسمعه أحد ؟

القدر في طائرة

أراد القدر أن يقفز هذه المرة إلى السماء ، ويداعب أهل الأرض الذين امتطوا الجو جناحاً ، ولعله فكر طويلاً قبل أن يختار هذه الطائرة التي حطت في مطار الشهباء .

لقد كانت المضيفة على غير عادتها مقتصدة في البشاشة والمرح ، لأنها كانت تحس صداعاً في رأسها يكاد يطرحها أرضاً . ولكنها كانت تتحامل على نفسها وتخطر في ممشى الطائرة ، متكلفة الضحك ، متصنعة المزاح . ولكن اغبرار لونها شاهد على ما تعانيه في رأسها .

لم تشأ أن تتم الرحلة إلى الجزيرة ، وآثرت أن تنتظر أوبة الطائرة ، لعلها في هذه البرهة تستعيد نشاطها وقوتها ، فأذن لها الربان بالبقاء ، وراحت الطائرة تهدر فوق بواري الجزيرة حيناً ، وحيناً فوق ذلك الشريط الأزرق الخالد المتعرج بين صحارى تتشبث بالفناء ، وبأحلام الفناء ، وهو يأبى إلا أن تدب الحياة خضراء ، هزيلة على ضفتيه .

لبثت المضيفة في المطار تأخذ نفسها بالاسبيرين وببعض المسكنات استعداداً للعودة على جناحي طائرتها إلى أرض الشام.

ولبثت تنتظر .

هنا، على مفرش الاسفلت المعد لنزول الطائرات وصعودها، كان شبح خفي ، يرتدي معطفاً أسود ، ويرخي على وجهه قناعاً لا يبين من وجهه إلا عينيه اللامعتين ، كان يحوم حول الطائرة الهابطة يريد منفذاً إلى داخل الطائرة مع ركابها الذين اختارتهم من الجزيرة ومن المدينة نفسها ، بينما أقبلت المضيفة في اللحظة الأخيرة، ولا يزال وجهها موشحاً بصفرة المرض، تريد الصعود . . . لكن ربان الطائرة الح على الإشفاق عليها ، وطلب إليها أن تعود إلى الراحة .

– ولكني أصبحت قادرة على الطيران معكم .

– عجيب ! أدعوك إلى الراحة وترفضين ؟ اشفقي على نفسك أيتها الآنسة . وإلى اللقاء القريب . . .

وفي هذه الأثناء طق مدخل الباب في وجهها ، وهي على المصعد الذي أخذ ينسحب إلى الوراء ، بينما بدأ أزيز الطائرة يهدر على المدرج مؤذناً بارتفاع الطائرة إلى الآفاق العليا . فارتدت المضيفة مرغمة إلى الأرض ، آسفة على أنها لم تكن مع الطائرة في هذه الجولة . كانت تجيل طرفها متألقاً بالدمع ، دون أن تدري لماذا تبكي ؟ وهي تتوسم هذه الوجوه التي تحاول صعوداً في السماء .

هذا وجه المحامي الذي عرض اسمه على الشركة لتحجز

له مكاناً إذا وجدت ، ويشاء له الحظ أن يتردد راكب سابق في متابعة الرحلة ، ليستطيع أن يزور أهله في منتصف الطريق ، فينزل من الطائرة ، لينادي المحامي حظ آخر يدعوه إلى أن يملأ مكانه ، فيجيء متردداً ، كأن هاجساً في نفسه يدعوه إلى التردد . . . ولكن لا بد له أن يملأ المكان .

وهذا وجه الشاعر الذي طالما سئم الأرض ، وحنّ إلى الالتصاق بالسماء ، ولو كان التصاقاً موقوتاً ، لعله ينتهي من آثام الأرض وشرورها ، ويغني خياله بأخيلة هذا الفضاء ، وهو في الوقت نفسه يستعجل الوصول ، لأنه ترك على الأرض زوجتين تتخاصمان فيه ، ومن ورائهما أطفال صغار ، تحوم أنظارهم حول كل طائرة يسمعون هديرها ، وودوا لو يبصرهم أبوهم من الأعلى ، وقد مدوا بأعناقهم كالأفراخ من خلال الأعشاش الرقيقة .

وهذا وجه الضابط الشاب الذي يحاول إخوته أن يحملوه على الزواج ، وقد استمهلهم حتى يعود ليرى عروسه التي وعدوه بها . وهو يفكر كيف يترك حياة العزوبة المطلقة إلى هذه الحياة المقيدة . ولكنه يحس من أعماق قلبه أن هذه العروس لن تكون له أبداً .

وهذا وجه المرأة التي احتضنت صغارها في الزاوية ، وقد تركت أباهم في الجزيرة ، تحمل الطائرة آماله وحصاد حياته

كلها ، وهي تمنيهم بأنهم واقعون على أهلهم بعد ساعة . ولكن كبيرهم كان لا ينقطع عن السؤال :

– لماذا تركنا أبي هناك ؟ لماذا كان يبكي حين سافرنا ؟ لماذا كان يداعبنا طول الليل ؟

فلا تثير هذه الأسئلة في نفسها إلا لوعة ، وهي لا تعلم لماذا كانت تتشبث بزوجها ليلة السفر ، وتصر على البقاء بجانبه ، ولو أدى ذلك إلى إلغاء تذاكر السفر ، ولكنهم كانوا يمشون إلى ركوب الطائرة مرغمين ، كأن شعوراً خفياً كان يملك عليهم ، ولا يستطيعون الإفلات منه .

وهذا مكان لفتى آخر لبث فارغاً ، لأنه جاء متأخراً لحظات عن موعد الطائرة ، فوجدها تنهض بأثقالها ، بينما هو راح يشتم سائق السيارة الذي توانى في الطريق ، فلم يستطع أن يلحقه بها ، فوقف جامداً يتأمل جناحيها يشقان قمماً خفيفة من السحاب المتراكم على الأفق ، والتفت ليرى المضيفة ، فصب عليها لومه ، وانهال يسب القدر الذي عطل بهذا التأخير مشاغله في العاصمة ، والمضيفة ساكتة حائرة ، كأن شيئاً خفياً علق أنظارها بالطائرة التي أصبحت كنقطة فانية تسبح في الفراغ . وعاد الاثنان إلى المدينة خائبين على نفس السيارة التي كانت تحملها إلى الطائرة .

• • •

ما كادت الطائرة تطوي ربع ساعة في طيرانها ، حتى استقبلتها عاصفة هزتها وتركتها تترنح في الجو كريشة في مهب الريح . أدرك الربان أن خطراً يختلف عن أي خطر ، يواجه طائرته التي عمرت سنتين في مصارعة الهواء .

– إلى أين يا طائرتي العزيزة التي رفعتها عن الأرض لتسبح في زرقة السماء ؟ إنه يحاول أن يفلت من قبضة الإعصار التي تتشبث بعنق الطائرة ، ولكن كان لا يتجه بها إلى جهة حتى يرى الإعصار قد سبقه إليها . وفي لحظة لا نرى أقصر منها ، لأنها اللحظة التي تولد فيها كائنات لا تعد ، وتفنى كائنات لا تعد ، راحت الطائرة تهوي بمن فيها بسرعة جنونية ، غير تاركة وراءها إلا هديراً كالعواء المقلوب ، يدل على أن مائدة شهية من لحوم البشر قد دعي إليها الموت .

لم يكن يشرف على هذا المشهد إلا بضعة قرويين كانوا منتشرين في حقولهم فتراكضوا إلى هذا العملاق المتدحرج الذي اتكأ على رأسه كمن يحلم في هذه الحياة التي كانت حقيقة قبيل لحظة ، ثم أمست حلماً لا يريد أن يستقر . . . أقبلوا على الطائرة المهشمة ونظروا إلى ما فيها . . . أجساد بشرية تلاصقت بقوة الضغط حتى صارت جسداً واحداً لم يبق منها وجه معروف ، ولا جسد مقدر ، ولا علامة واضحة . . . كتل من اللحم والعظام تراصت كتلة واحدة بدون جراح ولا

دماء ، لأنها ماتت ميتة زرقاء .

وهؤلاء الفلاحون يروون أنهم شاهدوا حين سقوطها جسداً موشحاً بالسواد ، قد قفز قبل أن تتهشم الطائرة ، ووثب بخطى واسعة دون أن يعرفوا إلى أين اتجه ، وكيف نجا ؟ وقد خيل إلى البعض أنه سمع صدى ضحكاته العالية يرافق صدى الطائرة المحطمة ، ولكن أحداً منهم لم يتحقق من شخصيته ، والبعض منهم لا يستطيع أن يؤكد لنفسه أنه لمح هذا الشبح ، والبعض الآخر يخلط رؤياه بين الحقيقة والخيال . . . ولعله لم يكن إلا القدر الذي يكمن وراء كل حادثة . نتخيله ، بل نحس أنا نراه ، بل نشعر بأنه أحياناً يصعد من أعماق نفوسنا ولكنا لا نعرفه إلا بعد أن يفر بفريسته .

أقبلت وسائل الإنقاذ راكضة ، علها تنقذ جريحاً ، أو تعين سليماً ، على أنها لم تجد إلا أجساداً متلاصقة لم تستطع أن تفصل واحداً عن آخر إلا بالكره ، وحملت إلى المدينة هذا الحصاد المحزن ، لتوزعه في نعوش تحمل إلى أهلها في مدن متفرقة ، بدلاً عن تلك الأبدان الحية التي كانت قبل ساعات فياضة بقوة الحياة .

والآن ، فقط ، أدرك ذلك الراكب الذي باع تذكرته للمحامي في منتصف الطريق أن القدر قد أعطاه تلك المهلة لينقذ نفسه ، ويتناول غيره .

وأدرك أهل الشاعر أن الذي كانوا يتخاصمون فيه قد أفلت منهم جميعاً ، ليتم حلمه الرهيب على تلك الأرض الفارغة ، على أن القدر لم يقطع الرجاء من نفوس صغاره في لقائه ، فهم ينتظرون .

وأدرك ذلك الضابط الفتى أن العروس التي كانت تنتظره لم تكن تنتظر إلا وهماً في حياتها ، ولو أنه لم يسعَ إلى تجسيد هذا الوهم وتحقيقه للبث حياً برغم الموت .

وأدركت تلك الزوجة ، في اللحظة الأخيرة ، لماذا كان رجلها يتعلق بها وبأولاده ، دون أن يجد الجرأة الكافية على السفر معهم ، أو بقائهم معه بجانبه . إنه كان يشم كل ولد حيناً ، ثم ينتقل إلى سواه ، ثم يعود إليه ، كأن شعوراً غريباً يحثه على أن يكسب هذه اللحظات المعدودة من هؤلاء الأحياء المتصلين بكيانه .

وأدركت تلك الأم كيف لحق القدر فتاها النائم الذي تخلفت به السيارة ، وظل طرفه عالقاً بالطائرة ، متحسراً على تلك الثواني التي سبقته بها . . . جاءت أمه تهنئه بالسلامة ، وتلثم عتبة غرفته شاكرة لله عنايته الخفية . أيقظته من نومه ، وأنبأته بإيجاز ما حل بالطائرة ، فما رأت في السرير إلا فتى تجحظ عيناه ، ويجمد وجهه ، وما همت الأم بالصياح حتى كان فتاها يصافح ركاب الطائرة في عالم الموت . إنها لمحة

زادت في عمره ليموت على سريره رعباً . ومن فاته لقاء القدر في السماء لم يفته لقاؤه في الأرض . .

وأما تلك المضيفة التي نهرها ربان الطائرة مرتين لتستريح في بيتها فقد كانت في غرفتها تلوم الربان على استبداده وقسوته معها ، لأنها لا تريد هذه الراحة . وماذا تريد من بقائها وحدها؟ وربما كانت على ميعاد مع حبيب . وبينما كانت تستقبل المذياع بأغنية تملأ فراغها استقبلها نبأ الفاجعة . . .

لم تقل شيئاً ، ولم تفتح فاها بكلمة ، ولكنها لم تعد تستقر في الغرفة . خرجت هائمة على وجهها ، لا تلوي على شيء ، تريد الطائرة .

ـ الطائرة أين هي ؟

وفي طريقها ، شاهدت السيارات عائدة بالنفوس الملفوفة بالسواد تشق طريقها إلى المستشفى العسكري ، والناظرون واجمون ، كأن خفق أجنحة الموت يطبق على عيونهم ، ولكن الفتاة وحدها كانت تشق طريقها خلف السيارات ، غير مصدقة أن الكائنات التي ودعتها في الطائرة منذ ساعات تمشي أمامها فاقدة الحياة .

ـ أهذه هي الحياة ؟ وبعد ذلك يقال إن الإنسان يملك كل شيء ، إنها حقيقة تدعو إلى السخرية .

اقتربت من باب المستشفى تريد الدخول ، لولا أن حربة

ممدودة حالت بينها وبين الدخول .

– لماذا تمنعونني من الدخول ؟ اني مضيفة الطائرة ، نجوت بنفسي . أريد أن أرى رفاقي . . . لماذا نجوت وحدي ؟ ماذا يريد القدر مني ؟

بعد قليل أذنوا لمن لهم معرفة بالمفقودين أن يطلعوا على أشلاء الضحايا ، وكانت الفتاة تقف عند كل جثة ساكتة ، مشدوهة ، كأنها تتذكر ملامح كل شخص ، على أنها كانت أكثر تذكراً لملامح ربان الطائرة الذي نهرها رفقاً بها ، وبجانبه ذلك السائق الذي جاب الجو سنين عدة ، دون أن يخونه الحظ إلا هذه المرة .

– إلهي ! لماذا نهرني ؟ ولماذا لم تكتب مصيري مع مصير طائرتي ؟

وفجأة تعالى نشيج الفتاة في البكاء ، وأخذت تتناثر دموعها الحبيسة هنا وهناك ، فأخرجوها إلى حديقة المستشفى ، ومنها إلى غرفتها لتبقى وحدها ، ولكنهم يقولون :

إنها لم تعد تركب طائرة ، وتظن في الوقت نفسه ، أنها لا تزال راكبة طائرتها ، تجلس وحدها ، فتضحك بدون علة ، وتبكي بلا سبب ، كأن حياتها تغمرها أشباح خفية ، تسلبها إرادتها ، وإذا مشت خيل إليها انها في الجو ، فتقول بنفسها :

– أنا على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم . . . لدينا مئة ميل

للوصول . . . وهي لم تجرب بعد تلك الصدمة العنيفة أن تهبط من هذا الارتفاع ولم تقنع بأنها وصلت إلى مطارها دون أن يكون هنالك ميل واحد لأن حياتها انتهت مع حياة طائرتها .

وبعد ذلك أليست هذه الطائرة صورة مصغرة عن العالم بمصيره وفجائعه ؟ . .

عندما تضحك الحياة

كانت السيارة تسير بهما وئيداً ، على منعطف جبل ، ينحدر عنه واد عميق . هو كان بجانبها ، وهي من وراء مقود السيارة . . . يتطاول وجهها شامخاً ، لكنه طافح بالحنان ، وأناملها اللدنة تقبض على المقود ، وتديره كالسكران بين يديها.

كانت تتقدم قليلاً ثم تتباطأ . . . تقول له : هنا ؟ . . فيجيب : لا بل هناك . . . تقدمي قليلاً . . . هنا . . . هذا مكان الحجر الذي اقتحمته السيارة حين زاغت إلى الوادي . . .

وقفت السيارة ، ونزلا منها . . . وراحت الفتاة تلوح بيدها مشيرة إلى شجرة مقطوعة ، لم يبق منها إلا جذعها متكئاً على جذورها الضاربة في الأرض . . . لا يزال جرحها أخضر طرياً ، ولا يزال الدم اللزج الذي سال من جراحاتها يلطخ أفواه الجراح . . . إنها محطمة . . . صارت للماضي ، لم يعد لها مستقبل . . . كانت تفكر في السماء فأصبحت تطرق في الأرض . ولكن على أطرافها بعض أوراق متناثرة كأنها تنازع الموت على بقائها ، وترجو الحياة أن تزيد في إسعافها . . .

لم يكن هذان الاثنان إلا عائدة وسليماً . . . اللذين بدأت

قصتهما منذ شهور . . . قصتهما هي القصة القديمة التي نحياها دائماً . . . سليم . . . الفتى الجذاب وقعت عينه في خلوة على الفتاة عائدة . . . ومنذ هذه النظرة راح القلبان يخفقان . . . كلاهما ينظر في الآخر مجتمع أحلامه . . . يعجبه من محبوبه أشياء كثيرة . . . ولكن تبقى – هناك – أشياء أكثر تثير الإعجاب دون أن يستطيع إدراك أسبابها ؛ . . وما هو الحب كله ؟ ؟ . . إنه هذا الشيء الخفي الذي يفتح أنفسنا ، ونتلقاه بسرور . . . إنه ناعم ، ناعم جداً . . . ثم هو عاصف بقوة الزوبعة . . . لا يسع النفوس القوية إلا أن تنحني تحت لمساته . . .

عائدة . . . الفتاة اللعوب ، الناشئة في أسرة وضيعة . . . تلمع عيناها بالجمال المسيطر ، وتشفان عن حياة جديدة تكون غنية بالترف واللهو . . . تضحك لنظرات الفتيان ، بينما تعير سمعها لما يلقونه في الهواء على مسامعها من إعجاب بجمالها . . . إنها تريد الفتى الممراح ، الذي يستطيع أن ينتشلها من بيئتها المحدودة ويحملها معه من مكان إلى مكان . . . إنها تريد جمال الفتوة ، وتريد معه اليد القوية ، والروح العذبة . . .

لقد وجدت ذلك كله في الفتى سليم الذي هجر القرية ولم يرض لنفسه بالحياة البسيطة . . . نزل المدينة ، ودبر له عملاً فيها . . . وأخذ يقلد الحياة الجديدة ، ويتعودها . . . ويتذوق

نعماءها . . .

لم تكن أيام المعرفة طويلة . . . وطبعاً كان ذاك من حظ الاثنين . . . فالحب جرف الزمان بقوته واختصر ساعات العتاب ، وجمع الاثنين في خطبة سريعة . . .

كان سليم كلما انتهى من عمله عرج على عائدة بسيارة فخمة ، فلا تكاد تسمع زمورها حتى تركض إليه . . . ليذهبا في نزهة طويلة تتسع لترجمات الأشواق . . .

لقد كانت السيارة أقصى ما تتمنى عائدة في هذه الحياة ... والسيارة اليوم عامل أساسي في الحب يحلم بها الفتى ، وتتمناها الفتاة . . . وتدور على خفقتها خفقات القلوب .

– لماذا أنا لا أسوق يا سليم ؟

بدأ سليم يمرن عائدة على سوق السيارة . . . ولعل ساعة التمرين كانت أسعد ساعات حياته ، حين كان يمر أصابعه على أصابعها المرتجفة اللاصقة بمقود السيارة . . . فلا يدري أية سيارة يدير ، ولا أية سيارة تدور .

لقد تعلمت عائدة السوق ، وكلما خرجا إلى النزهة أخذت منه المقود ، وراحت تلف منعطفات الجبل برشاقة ، وخلال ذلك تبدأ الوشوشات بين الحبيبين السعيدين :

– ما أسعد الحياة هكذا يا سليم !

– ولكن يجب أن نسرع في زواجنا يا عائدة . . .

– ولكنهم يقولون : أيام الخطبة أجمل من أيام الزواج...

– حقاً يا عائدة . . .

– وهل أنت في شك من حبي ؟

– لا . . . ولكني خائف . . . يقولون : إن الحب ينهزم في آخر لحظة .

وهنا ترجحت خصل من شعرها على وجهه ، بينما كانت عيناها تمتصان الطريق البعيد .

وتمتمت شفتاها بفتحة صغيرة :

– الأحد . . . أيعجبك الأحد ؟

في مساء السبت ، وكانت عائدة منهمكة في إعداد نفسها ليوم الأحد ، وكانت تخطر في الساحة العامة ، فإذا سيارة خطيبها سليم تمر وثباً ، فتناديه . . . ولكنه لم يقف . . . حدقت إلى جانب السيارة الأيمن . . . ماذا ترى ؟ أتكذبها عيناها ؟

– رباه . . . إنه سليم نفسه . . . ولكن من هي هذه الغادة الحسناء بجانبه ؟ . .

صدمة هزت نفسها ، بل كادت تصعقها أرضاً لولا أنه الطريق ، فتماسكت قليلاً . . . وبدأت عيناها الصافيتان يغلب عليهما غبش أسود ، يتراكض فيهما كالظلال القاتمة . . . والطريق يبتدىء ضيقاً طويلاً أمامها .

– هذا سليم ؟ ؟ ؟ أيمكن لهذا الخائن أن يخون حبي ؟ هل انتقل عني إلى قلب ثانية ؟ . . إنه لم يكن إلا كغيره من الفتيان . . .

تمكن في قلب عائدة القلق والانتقام من هذا الفتى الذي سلبها قلبها ، وبنت على حبه السعادة . . .

– أيمكن أن أسمح له بأن يبني سعادته على شقائي ؟ الموت لمن يجرؤ على ذلك .

وهنا بلغت البيت ، وهي فريسة هذه الأفكار المتطاولة ... وما جازت غرفتها حتى أجهشت في البكاء ، ليمسح الدمع قصتها . . .

جاء سليم كعادته ، وهو لا يدري هذه السحب السوداء التي عكرت عليه حبه وسعادته . . . استقبلته عائدة وكأنها لا تدري شيئاً ، بضحكتها العالية ، وعينيها الصافيتين ، لكن أصابعها كانت ترتجف عند المصافحة ، والدم الدافىء كان يفر منها . . .

– سليم . . . أنا زعلانة .

– زعلانة . . . عمر الزعل ما كان . . .

– أريد أن أمضي معك في نزهة إلى الجبل .

– فقط نزهة . . . تفضلي . . . السيارة بالانتظار .

صعدت عائدة إلى السيارة وهي تجيل طرفها الحائر في

المكان الذي كان يضم حسناء الأمس ، وتضغط على أعصابها فلا تنفجر . . . وجلست إلى المقود وسليم بجانبها كعادته . . . وأطلقت عائدة زمام السيارة ، لتسير على ذلك الطريق الذي سمع وشوشاتهما وطبع قبلاتهما . . . حين كان الحب لا يزال نقياً . . .

في الطريق التفتت عائدة بلهجة عصبية :

– من هي الفتاة التي كانت معك في السيارة أمس ؟ ؟

– أية فتاة معي . . . وهل تكون سواك ؟

– قل لي من هي . . . أريد أن أعرف .

– يا عائدة طولي بالك . . .

– أنت أمام أمرين : إما أن تقول لي من هي تلك الفتاة ، وإما أن ألقي بالسيارة إلى هذا الوادي ونموت معاً . . .

– كفى مزاحاً يا عائدة . . .

– قل لي : من هي ؟

– لم يكن معي أحد . . .

– إنك تخجل أن تقول أيها الغادر . . .

وهنا لفت مقود السيارة إلى جانب الوادي ، فأكلت الحاجز الجداري ، وهوت إلى الأعماق ، وكادت تهوي أكثر . . . لولا أن شجرة قوية حضنت السيارة بذراعيها ، وأوقفتها عند جذعها الذي تحطم . . .

أسرع من رأى السيارة إلى استنقاذ من فيها وحملوا الخطيبين إلى المستشفى ، وقد أصيب كلاهما بجراح ، بينما السيارة قعدت تستريح على الجذع كعجوز تحلم في الماضي البعيد ، وتسخر من المستقبل . . .

ولما عاد الوعي إلى سليم تمتمت شفتاه :

– عائدة . . . هل أصابها سوء ؟ ؟ ؟ أريد أن أراها . . .

جاءته عائدة تشد يدها على قلبها خائفة فبادرها :

– عائدة . . . تريدين الحقيقة ؟ . . سأقولها قبل أن يصيبني شيء . . . إن السيارة لم تكن ملك يدي . . بل كانت لمدير المصنع الذي أعمل فيه . . . والفتاة . . . الفتاة التي رأيتها هي بنت المدير . . .

قال سليم هذه الحقيقة ، وانفجرت عائدة بالبكاء .

– حبيبي سليم . . . لقد أخطأت بظني . . . سامحني . لماذا لم تقل لي ذلك ؟ ؟

أتعتقد أنني أحبك لأنك تملك سيارة ؟ . . لا وحياة عينيك . . . فأنا لك حتى الموت .

لم تطل أيامهما في المستشفى كثيراً . . . ولم يطل موعد زواجهما السعيد بعد ذلك ، وكانت السيارة المهشمة هدية مدير المصنع لسليم ، وكان هدفها الأول – بعد الاصلاح – ذلك الطريق إلى الوادي . . .

كانت الفتاة أسبق من فتاها في الوصول إلى الشجرة ، انحنت عليها تقبلها ، وتمرغ وجهها الذي تندى بدمعتين تعبران عن الشكر لهذه الشجرة .

– انظري يا عائدة. . . أين كنا لو تخلت عنا هذه الشجرة ؟ إنها ذهبت ضحية سيارتنا لتصون حياتنا . . . كم في الجماد والأشياء من يهيء للإنسان ساعات اللقاء . . .

وقفا قليلاً عند بقايا الشجرة المحطمة ، يرسلان الطرف حيناً في منحدر الطريق ، وحيناً في الوادي البعيد . وعلى غير شعور منها أنزلت عائدة عن كتفها ركوة الماء ، وجعلت تصبها على عروق الشجرة المتقطعة .

– إنني لا أملك لك شيئاً أكافئك به . . . إلا هذه القطرات من الماء . . . إنك عطشى تحت الشمس ، وجراحك تنزف كثيراً من دمائك . فلتبلل عروقك بهذه القطرات الباردة . . . إن المحتضر ينعشه الماء . . .

الابتسامة الجريحة

باب النصر . . . هذا الشارع الذي كتب علي منذ سنين أن أمر به في الغدو والرواح من الكهف إلى المدرسة ، ومن المدرسة إلى الكهف . . . هذا الشارع رأيته اليوم كما كنت أراه أمس ، لم يتغير شيء فيه ، وربما تغير كل شيء فيّ . ولكني أروده اليوم ثابت الخطا ، قوي القلب ، لا يعاودني ما كان يعاودني أمس من خوف ومن تردد . ومع ذلك كنت أخشى أن أمرّ به . . كأن كابوساً ثقيلاً يضغط على قلبي منـــه .

ما هي أسباب بغضي له ؟ ما هي أسباب خشيتي منه ؟ ألأنّه يمثّل لي سقفه حدوداً تمنع عني السماء ، وأنا أريد الانطلاق ؟ أم لأنه يمثل لي هؤلاء الناس الذين يعيشون داخل حوانيتهم المظلمة ، قد حرموا أنفسهم الهواء والضياء بإرادتهم؟ أم لا أزال أتمثّل ذلك القصاب الذي كان يملك أكبر حانوت في هذا النفق لبيع اللحوم ، أتمثله وهو يطلب مني دفع الحساب لقائمة تراكمت على قائمة ، وأنا أعده خيراً ، وهو يعدني أن يرسل القائمة إلى البيت ، ثم أعده أن أزوره في مكانه .

وبين الزيارة والزيارة قائمة جديدة .

مررت بالنفق ، ورحت أرسل طرفي هنا وهنا ، كما يرسله قروي نزل المدينة أول مرة . . . يرسله حائراً مرة على الجدران ، ومرة على ما وراء الجدران . ومرة على العابرين ، ومرة على وجوههم وأحذيتهم ، كأن لا عهد له بهؤلاء الناس .

كان كل شيء كأنه المجهول عندي . . . ولكن شعوراً باطناً كان يدفع بناظري نحو دكان القصاب ؛ هذا دكانه الواسع الذي كان موضع حسد عند جيرانه ، حتى سموا دكانه « ذا البابين » ولكن لم يعد له بابان ، بل لم يعد فيه أثر للحم ولا الشواء . بل لم يعد من أثر للقصاب نفسه الذي كان بدنه يملأ مدخل الدكان وحده . . . ماذا صنع الله به ؟ إن يكن حياً فلا بد أنه لا يزال يجاهد في غير مكان .

لقد شغل مكانه بائع آخر ، لا صلة له باللحوم . . . إنه بائع للمرايا . . . لا فرق بين زبائنه اليوم وزبائنه بالأمس . هؤلاء يطلبون ما يعكسون له جيوبهم . وأولئك يطلبون ما يملأ أجوافهم . والمكان والجدران ترحب بكل تبدل على اعتباره تطوراً في الحياة . والتطور لا يكون إلا إلى الأمام .

مشيتُ ولا أحد يشعر بهذه المعركة الحادة التي تدور في رأسي . . . التفتّ :

ــ آه . . . وهذا أبو صالح ، وهل أنسى « أبو صالح »

الذي كنت أشتري منه الفاكهة ؟ إنه لا يزال مكانه . شخص ضئيل الجسم ، يقعد بدون ظل ، قميء هزيل بقدر ما كان القصاب ضخماً . وهما على معرفتهما بشذوذ خلقتهما لا يقدر أحدهما أن يساعد الآخر . يضع على رأسه عمامة غبانيّة براقة الخيوط ، ناعمة الملمس ، صفراء فاقعة ؛ تشير بنفسها أنها مظهر للتبرك لا مظهر للعلم . ومع ذلك تنم على الصفاء وطيب القلب أكثر من سواها . . . إنه لا يزال وراء صناديقه المشحونة أنواعاً من الفاكهة التي تفتح كهوفاً سحيقة في الحلوق، وتخلق الغصة في الجيوب . لكنّه بعد تلك السنين ، زادت قامته تقاصراً على قصر ، وراح الشيب يسرع إلى رأسه ولحيته أكثر مما كنت أقدر . والشيخوخة تحاول أن تعمق خطوط الجبهة في غضون وجهه .

ـ أوه . . . أبو صالح ! صباح الخير يا بُو صالح ! بعد زمان ! كيف الأحوال ، كيف الأولاد ؟

ـ بخير إن شاء الله .

إنّه ابتسم لي كعادته ، ولكن كلماته لا تجري كعادتها منطلقة . إنه كان كعهدي به مكثراً . فما له اليوم مقلاً ؟ وهل يكتفي الصديق بهذه الكمية الضئيلة من الكلام والسلام عندما يلتقي صديقاً بعد سنين ؟

كان بجانبي شيخ يشتري برتقالاً وهو يساومه ، ويده

تناول كيس الورق ليكون مثوى لابرتقال . . .

– أخبرني كيف صالح ؟

التفت إلي هذه المرة ، ونسي البائع ، وسقط الكيس من أصابعه النحيلة المنفرجة ، كأنه يريد أن يتكلم ، ولكنه لا يستطيع . رأيته امتُقع وجهُه ، ولكني لم أفهم شيئاً . إنه ينظر إلي نظرات جامدة أخافتني ، ومع ذلك لا يزال فمه يفترّ عن ابتسامة خفيفة يشف عنها رفيف شاحب اللون .

– أين صالح ؟

التفت إلي الذي كان بجانبي ، وغمزني بعينه ، فأدركت أن شيئاً ما في حياة « أبو صالح » . فلم أطلب منه تفسيراً ولم أقف طويلاً ، بل أسرعت بالفرار عن دكانه كما يسرع الجاني بالفرار عن موضع جنايته . وانتحى بي الشخص نفسه بعد أن ابتعدنا ليقول لي :

– هل تعرف صالح جيداً ؟

– وهل أنسى من علّمته وكنتُ سبباً في إنقاذه من هذه الحياة المظلمة ؟

– إذاً مات صالح الذي تعرفه .

– مات صالح . . .صالح مات . . . صالح الشاب الذي كان في طريقه إلى بناء مستقبله .

– آخر العهد به كان معلماً في قرية ، يُعلّم ليأكل ،

ويدرس الحقوق ليكون محامياً . . . اقتنى دراجة نارية كانت تحمله في الصباح إلى القرية ، وتروح به في المساء إلى البيت .
كان عائداً في ذلك المساء كعادته، وفي حي من أحياء الجميلية، حيث يقوم مركز كهربائي كتب عليه — خطر الموت — خطر الموت من داخله طبعاً . هناك . . . وعلى الجدار نفسه اقتلعته سيارة شحن ضخمة ، هو ودراجته ، حملت إليه الموت من خارج المركز الكهربائي . بقع من الدم حمراء استدارت قليلاً ، ثم انحنى منها خيط رفيع سال وانثنى ، ونثير من المخ تلطخ به الطريق الأسود ، والجدار القريب . حملت الجثة إلى المستشفى ليسجلوا موتها رسمياً ، بينما هبطت شوارد من الذباب تمتص النجيع اليابس ، وتحمل فتات المخ في مائدة سخية بدون هزيج . . أما الطريق فقد عاد يفتح ذراعيه متثائباً بعد ساعة التحقيق للصاعدين والهابطين كما كان.

هذا كل ما سجلته تلك الحياة التي ثارت على واقعها الجامـــد .

* * *

لم أعد أستطيع الوقوف ، وكلما حاولت الفرار من وجه صالح تبدّى لي أكثر تمسكاً بي . لأن وجه صالح قد انفرد بي من دون هؤلاء الناس جميعاً . . . هؤلاء الناس الذين يعبرون بي الآن لا أرى واحداً منهم إلا تقدمه وجه صالح ،

صالح الذي كنت أقدر له كل شيء إلا هذه الميتة . . .

كأن اليوم الذي عرفته فيه كان أمس ، يوم كنت ألقاه وراء هذه الصناديق نفسها كأبيه ، وأمرّ به في هذا الحانوت حيث كنت أحدّثه وكان يحدثني . إن به لذكاء ، وإن له لفطنة . . . كان يسألني عن الدراسة ، عن الشهادات . كنت أقول بنفسي :

– عجيب . . . لو أن « صالح » قدر أن يتمم دراسته، هل يكون مقعده هنا ؟

لقد آلمني صالح لكثرة ما يسألني عن عالم العلم . إنّه يريد أن يكمل . ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ إن روحه تتلظى شوقاً إلى الخلاص من هذه الصناديق التي تحملق بعيونها في الزوايا دون أن تغني حياته شيئاً .

قلت له :

– لماذا لا تنتمي إلى مدرسة ليلية ؟ إنها تغنيك عن مدارس النهار ، ولا تعطل عملك المعاشي .

ولا أزال أذكر كيف جاءني ، تلك الليلة ، بقمبازه الذي ضاعت ألوان خيوطه بين البقع السود الفاشية . ومنذ تلك الليلة أمسى « صالح » طالباً مع غيره من طلاب الليل المجاهدين الذين يكافحون معاكسات القدر ومعاكسات الناس أحياناً ، ومعاكسات أقرب الناس إليهم ، حتى آبائهم . . .

إنّه صار واحداً من هذا الجيش الكثيف الذي كان يملأ مدرسة الليل ، فيه العامل والصانع والحمّال والصبّاغ ، يجاهدون في الليل للعلم ، ويجاهدون في النهار للرغيف ، الرغيف الذي يمثل الدائرة التي لا تنام على منحناها . والدولاب الذي يدور ، ولا يزال يدور .

إنه طالب طينته من غير طينة هؤلاء الطلاب ؛ انه يقفز من فصل إلى فصل في مدى شهور ، وبعدها صار معلماً ، يُعلّم ويتعلّم . نفس الجهاد على الجبهة نفسها . ذلك كان آخر عهدي به . . .

* * *

مشيتُ على وجهي ، وقد صدمني كل شيء نُقدّره في الحياة أو لا نقدّره . ونسيتُ دكان القصاب الذي بتّ أخشى أن ميتةً كهذه الميتة أدركته ، ورأيت المرايا في دكانه تزحف إليّ لتطلعني على وجهي الجديد ، وفي كل زاوية منه وجه صالح . وأخذت طريقي إلى البيت ، وأثقال الذكرى تبرك على ظهري .

ولكن الشيء الذي يعذب نفسي هو مرأى هذا الطريق الذي أصبح المرور عليه يلزمني به واجبي بعد أن انتقلت المدرسة . أخذت نفسي تحدثني بالامتناع عن هذا الطريق . ولي دونه ثلاثة طرق بدل الطريق الواحد ، إلاّ أن شعوراً

خفياً لا أكاد أقوى على الانفلات منه ، كان يحملني إلى الطريق نفسه ، وإلى حانوت « أبو صالح » نفسه ، والوقوف عند « أبو صالح » لآخذ بعض حاجاتي من عنده .

إن « أبو صالح » يضحك لي كلما رآني مقبلاً عليه كأنه يدعوني إلى الوقوف عنده ، ولو لم يكن لي حاجة ، وأنا أضحك له وإن لم يكن من سبب يدعو إلى الضحك .

ـ يا ترى ، هل يرى وجه ولده على وجهي فيرتاح له ويأنس به من قبيل التذكر ؟ وهل أرى أنا وجه ولده على وجهه فنتحدّى الموت معاً ؟ قد يكون ذلك ، وقد تكون هذه هي التعزية الوحيدة التي بقيت من بعد تلك الحياة التي كانت بأبعاد، فعادت بدون أبعاد . الحقيقة أن تلك الحياة قد انتهت بهذا الحلم القاسي . ولكن أليس وراء هذا الحلم جناية ؟

لو لم يتعلم « صالح » ويصر معلماً أما كان محله هنا موضع أبيه ، يستمتع به أبوه ، وهو يستمتع بالحياة ؟ وعلى الأقلّ لا تكتب منيته على أنياب دراجة . ولكن ليس المهم ألاّ يموت صالح ، لأن ميتة أخرى من لون آخر سيهيئها له القدر .

إني أوبّخ نفسي كيف نسجت له يدي أسباب هذه المنية . فهل أنا جانٍ ارتكبت جريمة القتل ؟ وما همني ألاّ يعرف الناس بجنايتي . هم كثيرون أولئك الذين يجنون دون

أن يحسوا بظل جنايتهم يمشي وراءهم . . .

لعل بسمة « أبو صالح » لم تعد في نظري إلاّ بسمة جريحة ، تفحّ بعتاب لي على هذه الجناية الخرساء التي ألحقتها بولـــده .

ـ آه ، كم بتّ أتمنى لو أراه مرة بدون هذه الابتسامة الجريحة القاسية !

هبة العيد

كانت أم آسية تجرّ وراءها بناتها المتدثرات بأزياء عتيقة ، تكاد تتعثر على طريق المقبرة في أثناء عودتها ، كأنما كل بنت ظلّ من ظلال هذه الأشجار السوداء التي توحي إليها بأن الحياة سوداء .

وكان الطريق يفرض عليها صمتاً غريباً ، ووحشة أليمة تنبعث من تحت القبور . منذ ساعة كان نعش زوجها يخترق هذا الطريق لآخر مرة على ظهور الأحياء ، وقد جهز جنازته من أشفق عليها من الأصدقاء . على أن نفسها ، برغم هذا الصمت الغريب ، كانت مسرحاً لأكبر معركة في أعماقها .

. . . أختها التي تحبها لم تصاحبها إلى المقبرة . . . ألأنها غنية وأصبحت تخجل من صحبة البؤساء ولو كانوا أقرباء ؟.. ومع ذلك تحبها . . . لقد تزوجت الاثنتان من أخوين في ليلة واحدة . وما أقرب هذا الزواج ! ولكن الأقدار فرّقت بين المصيرين : هذا أيّده حظه ، وذاك خذله . . . لماذا ؟ لماذا تعيش هي وبناتها اليوم على البؤس ؟ إنهن يمشين خلفها متلهفات ، لا تذهب أنفسهن إلى خارج سور المقبرة . . .

ولا يدرين ماذا ينتظرهن وأمهن من أحداث هذه الحياة القاسية . . . أتشكو ؟ وما عسى تنفع الشكوى ؟ ولمن تكون ؟ أتمد يدها ؟ وهي تؤثر أن تراها مقطوعة قبل أن تمد . . . أتكشف عن جراحها ؟ ومتى كانت تطلع الناس على أمرها ؟.. لماذا كتب لها الله هذا النصيب ؟ . . ولكنها عرفت الآن أن دورها في الحياة قد بدأ ، فلتجاهد من أجل هؤلاء البنات المقطوعات . . .

وتلتفت فجأة إلى بناتها ، فترى الباكية ، وترى الشاحبة ، وترى الصغيرة التي لا تزال تضحك كأنها لم تفقد شيئاً ، ولن تحس بفقد شيء ما دام العالم معموراً بأمها . . . وتتصور من حولهن بنات أختها يخطرن في نعيم من العيش . . . يبكين لأن الدمعة تستجلب الدمعة . . . والحزن يستجيب للحزن . ولكن القربى وحدها لا تكفي لتقريب هذه الأجساد . . . إن الدم واحد ، ولكن هذه الأزياء المتنافرة تأبى أن تتلاصق . . . أثواب الفقر في جانب ، وأثواب الغنى في جانب . . .

وتمر الأيام ، وأم آسية تجاهد الفقر ، والعذاب الذي يرافق الفقر ، فمرة تنام على شبع وارتواء ، ومرة على جوع وشقاء ، ولكنها لم تخضع مرة لليأس ، كأنما شبح بناتها البريئات يدفعها إلى الوقوف والاعتماد على الرجاء .

كانت تأتي أختها أحياناً حين يضيق بها العيش ، فتقف

بين يديها صامتة ، تهمّ بأن تتكلّم ولكن لسانها يتجمّد كأنّه ملتصق بحلقها . وتقول أختها :

– إيه تكلّمي يا أختاه ! ما الذي أتى بك هذه الساعة ؟ كيف حال البنات ؟ ويمرّ على هذا السؤال سكون . . . وهي لا تستطيع الرّدّ ، لأن الحاجة تدفعها والكبرياء تردّها . . .

إن الأفضل أن لا تردّ ، وأن تعود خائبة على أعقابها إلى بناتها اللواتي يتضوّرن جوعاً . . . ألا تشعر أختها بقسوة الحاجة على وجهها ، فلماذا تسألها ؟ أتلذذاً برؤية الألم ؟

كم مرّة وقفت هذا الموقف ، وهي تأتي لتطلب ، فلا تستطيع إلاّ أن تسكت وتعود أدراجها خائبة ! ولكن مخالب الحاجة دامية . . . فلماذا لا تطلب إلى أختها ، وهي المنعمة ، أن تقرضها من مالها ، ثم تفي لها ؟ . . لعلها تصدمها ، لأنها لا تعلم عندها وجهاً للوفاء . . . ولكن لعلّ الأيام أيضاً أن توسع عليها ، وتبدل وجه حياتها ! ! .

دخلت عليها مرة ، وليس في عينيها غشاوة الذل والسؤال :

– أقرضيني يا أختي ، لأشتري لآسية ثوباً . ألا تجدينه ممزّقاً عليها ؟ . . فأعطتها أختها على غصّة ، لأنها إذا ردّت الأم ، فلن تستطيع أن ترد البنت التي كان ثوبها في كل خرق فيه عين ملتهبة بالحقد والضراعة .

وكأنّما هذه الكلمة نجحت نجاحاً غريباً في حياة هذه الأسرة ، فكلما ضاقت الأخت بأمورها ، لجأت إلى أختها لتردّد عليها كلمة « أقرضيني » بدلاً من اعطيني .

دخل شهر رمضان ، فلمّا مضى نصفه ، اشتهى عليها بناتها حلواً في العيد ، بعد أن عبقت أجواء الحيّ برائحة الحلوى ، فمضت إلى أختها تكرّر عليها نفس الكلمة : أقرضيني ديناراً أعمل به للأولاد حلواً في العيد .

وكأنّما الأخت لم يعد صدرها يتّسع لهذه الكلمة ، فأقبلت على أختها تنهرها : ويحك يا أختي تغيظيني بقولك : « أقرضيني » ، فإذا أقرضتك ، من أين تعطيني ؟ أمن غلّة دور لك ، أو من غلّة بستان ، أم ماذا ؟ قولي لي : « أعطيني » وكفى .

انكمشت الأم على نفسها ، وراح جبينها يرفضّ عرقاً بارداً وودّت لو أن الأرض تنشقّ لتبتلعها . . خجلاً من هذا الذلّ الذي طرحته عليها أختها ، ولكن ، لا بدّ لها أن تتكلم ، حتى تنفض عنها غبار الهزيمة ، فقالت بابتسامة هادئة ، لا تشفّ عما تحتها من كوامن الحزن والخجل :

ـ أقضيك من لطف الله الذي لا ينسى من فضله أحداً .

أما الجواب فجاء من أختها ضحكة ساخرة :

ـ هذا والله أمل جميل . . . ويحسن بك انتظاره . . .

انصرفت أم آسية بعد هذه الصدمة التي أنستها أولادها ، وعبدهم ، وأعادتها إلى ذكرى هذا الصراع في الحياة ، ومشت تتعثّر ، لا تعلم ساعة شبيهة لهذه الساعة إلا يوم دفن زوجها ، ومع ذلك كانت منتصرة لأنها لم تفقد ثقتها بالله ، وهي تشعر بأن رجاءها فيه قريب جداً .

إنها بين مؤمنة بأن الله سيشملها بلطفه ، وبين شاكّة في هذا اللطف بعد أن سخرت أختها من آمالها . الحياة ضيقة بها ، ولكن ما لها مع ذلك تؤمّل . . . والحرمان يحيط بيتها ، ومع ذلك تحسّ أنّه سيفيض بالخير . متى يكون ذلك وأين ؟ إنها لا تعلم شيئاً من هذه الأحلام التي تكاد تغلبها على حقيقتها . . . إنها تلمح الرجاء في نفسها ، ولكن كيف يريد أن ينبع ؟ إنّه كالينبوع الدفين الذي يجاهد ليصعد . . .

كانت تجرّ رجليها إلى منزلها جرّاً ، وكانت تخبط من طريق إلى طريق دون أن تهديها عيناها . وأخيراً استقبلت حارتها ، وكأنّ رَوحاً من الأمل عاود روحها :

– من هذا الشبح الأسود الذي يعترض طريقي ؟

– إيه أم آسية ، أنسيت العبد ياقوت ؟

– ويلي عليك ، هذا أنت . . . لقد أرعبتني . . .

– في جوارنا امرأة تطلق ، وقد أوجعت قلبي . ادخلي إليها فليس لها قابلة . . .

– متى كان عهدي بهذه المهنة ؟

– ادخلي . . . لعلّ الله يساعدك على أمرها . . .

شجعها كلام العبد ، لأنها وجدت فيه استجابة لما كان يعالج نفسها من لطف الله ، والأمل فيه .

دخلت على المرأة ، وآنستها بكلماتها ، وأجلستها كما كان القوابل يجلسنها في طلقها . . . وما هي إلا ساعة حتى ولدت ، وانتهى فصل الألم .

أقبل العبد وقد هاله هدوء الصياح :

– ما حالها ؟

قالت :

– قد ولدت .

فعجب العبد من سرعة أمرها ، وظن أن هذا شيء قد اعتمدته بحذق صناعة ، ولطف في المهنة . . . فركض إلى سته ، وكانت في حملها الأول لزوجها « أبي الحسين » :

– ستي . . دعي عنك القوابل كلهنّ ، في جوارنا قابلة أحضرتها لامرأة في الحارة تطلق ، فما ان وضعت يدها على جوفها حتى سقط ولدها . . . فقالت الست للعبد :

– ويحك ، جئني بها سريعاً .

عاد العبد إلى أم آسية ، ودعاها إلى مولاته ، فاضطربت في بادىء الأمر . أيسعفها الله كما فعل أول مرة ، أم يخذلها ؟

تردّدت في السير ، والعبد من ورائها يحثها على السير . . .
وفجأة – كمن تجلّى لها أمر يشجعها – انطلقت إلى هذا الغد المجهول الذي يخطّه القدر دون أن تدرك نفسها منه شيئاً .

دخلت القصر الرهيب ، ومرّت بين الجواري اللواتي امتدّت عيونهنّ إلى هذا الشخص الغريب حتى انتهت إلى غرفة الست ، فكلمتها ، فاستخفّت روحها وقالت :

– قد اخترتك من دون القوابل . . . فإلى تقدير الله . . .

كانت الأيام الأخيرة من شهر رمضان تتدحرج مسرعة ، وأم آسية متمسكة من الإخلاص لله ، خوفاً من سوء العاقبة ، ومن شماتة الأخت بها . فلم تمض ثلاثة أيام حتى مخضت المرأة ، ودبّ الطلق العنيف فيها . فأجلستها على كرسيّ الولادة ، وما هي إلاّ ساعتان ، حتى ولدت ابناً أسهل ولادة ..
وأبو الحسين زوجها يقوم ويقعد ، ويذهب ويجيء مضطرباً على زوجته . . .

– يا مولاتي انتهى الأمر . . .

– أهذا هو الطلق ؟ ماذا وضعت ؟

– غلاماً ذكراً . . .

فنهضت عن الكرسي دون أن تبالي بالألم ، وانحنت على أم آسية تقبّل عينيها من الفرح . . بينما كان أبو الحسين يسألها :

– ما الخبر يا مباركة ؟

– وحياة الأمير إنها في عافية . . وقد ولدت غلاماً سويّ الخلق بحمد الله .

وقف أبو الحسين ، وعينه لا تصدّق ، يلحّ بالنظر إليها لفرط إشفاقه عليها ، فاستمهلته حتى نقلت حوائج الولادة ، واعتنت بالطفل ، ثم أنهضت الأم وأحسنت لبسها وقالت لها :

– إذا دخل عليك الآن أبو الحسين فاضحكي له . إنك عنده الآن دنيا الفرح والسرور . ودخل أبو الحسين فاستقبلته بضحكة شفافة محت من وجهها أسارير الألم . . . وانهالت دموع الفرح من عيون الثلاثة ، ولعلّ أبلغها دموع أم آسية التي كانت دموعها آخر العهد بعيونها التي غشيت من طول البكاء .

راحت الأموال تغدق على المباركة أم آسية . . . وراحت الخلع تتهاوى عليها من كل جانب وأهديت لها الموائد من قصر الأمير .

أهذا هو لطف الله الذي أنكرته عليها أختها ؟ لقد كانت أختها تراه بعيداً عنها ، وهي تراه قريباً منها . . . ولمّا نزل عليها لم تستغربه لأنها كانت على ميعاد معه . . .

وأرسلت إحدى الموائد إلى أختها في صبيحة العيد ، وأهدت إليها من الحلوى ألواناً ما كانت لتحلم بها . . . وهي

التي ردّتها خائبة على أبسط أنواع الحلوى لهذا العيد .

تلقّت الأخت هذه الهدية مدهوشة :

– إنها هدية أمراء ، لا هدية فقراء !

وألبست أولادها وانطلقت بهم إلى أختها ، لتطلع على خبيئة أمرها . فدخلت البيت ، وكان عهدها به غير هذا البيت ، ووقعت على البنات اللواتي أصبحن ألواناً صارخة ، وحارت بين أن تهنىء أختها على هذه النعمة غير المنتظرة ، وبين أن تقهر كبرياء نفسها التي قهرها لطف الله . . .

أهذا هو لطف الله أراد أن ينتقم منها ؟

ووقعت على أختها تعانقها ، ودموع الفرح تبلّل نحرها :

– سامحيني يا أختاه .

فالتفتت أم آسية إليها باكية :

– سامحك الله ، لقد أنكرت عليّ قولي « أقرضيني » وها أنا اليوم أقضيك ما أخذته منك . . . إيّاك أن تستصغري من كان الله معه . . وبينما كانت تقصّ على أختها نبأها العجيب كان الأولاد يلعبون ويضحكون ويبتهجون بالعيد وقد قرّبتهم الأزياء الضاحكة بعد أن فرّقتهم تلك الأزياء الممزّقة .

المشوهون

الزمان : ايام الحرب . في ليلة من ليالي الغارات الجوية .

المكان : بيت ومستشفى .

الأشخاص :

الدكتور عاطف

الدكتور عادل

علياء : زوجة عاطف . وام الولدين .

نجلاء : ابنة عاطف

طارق : ولد عاطف

المنظر الأول

يفتح الستار على مدينة مظلمة كمدينـــة الأموات . انوارها زرقاء . وظلمتها شاملة .

نحن في مستشفى يدل ما فيه على الاضطراب الزائد وفيه أطباء وممرضات واسرة متنقلة تحمل جرحى وقتلى من أثر غارة جوية .

لا يزال المدير بعيداً ولا يزال الدوي يتواصل متقطعاً .

(سيارة تدوي في الخارج)

عاطف : (لمن حوله من ممرضين وممرضات)

أقبلت سيارة الإسعاف مرة ثانية ، تداركوا

من فيها .

(يركضون بأسرّتهم المتنقلة)

(لعادل)

أترى هؤلاء المدنيين يؤلفون جيشاً خطراً على العدو؟

عادل : هي الحرب ، متى تجردت عن الإنسانية ، فكيف نريد منها أن تتمسك بالإنسانية ؟ . . إنها وحدها عمل غير إنساني ، لا هدف لها إلاّ تشويه الإنسانية . . .

عاطف : ذلك حق !

وهذه القافلة الثانية . . .

(أنين وصراخ من نساء ورجال وأطفال)

(أم) : هلموا أولادي ! . . كنت أحضنهم حينما هوت علينا القنبلة ولا أرى أحداً منهم حولي .

عاطف : لا بأس عليهم . . . إننا انتشلناهم أحياء . . . عودي إلى هدوئك لأن الهدوء شرط لإنقاذ حياتك .

الأم : بربك أصادق أنت فيما تقول ؟

ألا يزال الذي اختطفته القنبلة من بين يدي حياً . . . بشرني . . . قل لي تعد إلي الحياة ، والأمل ، والدنيا ، وكل شيء ! ما لي أراك ساكتاً ؟ أتظن

أنه لا يزال تحت الأنقاض ؟ هاتوه لي على أي حال ! إن بإمكاني أن أرد إليه الحياة . . .

عاطف : (يواري وجهه)

إنه حي أقسم لك على ذلك . . . اهدئي بالاً وقري عيناً !

(للممرضين) اسحبوا سريرها إلى قاعة العمليات !

(لعادل) أرأيت أن ساقها لا بد من بترها الآن لأن العظم مهشم ؟ . .

عادل : إنها ليست تسأل عن حياتها . . . وسيان عندها أن تحيا بساقين أو بساق واحدة . وإنما يهمها أن ترى ولدها . إن قلبها يشعرها بأن ولدها استبدت به الأنقاض . ما عساها تصنع لو قلنا لها ذلك ؟

عاطف : إنها تصبر قليلاً ثم تضمحل . . .

عادل : لا يزال هنالك تبع للقافلة ! ألا انتهاء لهذه المأساة ؟

(فجأة تدوي صفارات الإنذار)

ممرض : أسرعوا حالاً إلى الطوابق السفلى ، إلى الملاجىء !

عاطف : وهؤلاء يتركون لمن ؟

عادل : لكن الخطر يهيب بنا أن نبتعد .

عاطف : سنعمل في الأعلى ، وفي الأسفل ، وفي أي مكان!

(تدوي القنابل ، ويتعالى أزيز الطائرات ، والمدافع المضادة)

عادل : الغارة إثر الغارة ! والأنقاض فوق الأنقاض .

عاطف : (بتهكم) أوَليست الأنقاض التي تسببها قنابل الحرية تذهب في وجه الحرية ؟ وما تسببها قنابل الوحشية تذهب للوحشية . الآن ارسلوا سيارة الإسعاف تدور ، وارسلوا سيارة غيرها . . . ربما أودى التأخر بكثير من الأرواح المعلقة حياتها بخيط دقيق .

(يدق جرس التلفون)

عاطف : نعم ، نعم ! . . هيأنا كل شيء . . . السيارات الآن في الطريق . . .
سأذهب بنفسي !
(لعادل)
الخسائر في الأرواح كثيرة ، يظن أن نصف حي كامل قد دمرته القنابل !
سأقف بنفسي على أعمال الإنقاذ واستخراج الضحايا . . .

عادل : كان الله معك !

عاطف : لا تبرح مكانك (يخرج عاطف)

المنظر الثاني

«في الملجأ ، (أم وولدها وابنتها) أسرة الطبيب عاطف على ضوء شمعة مرتجفة ، نجد الأم تحضن ابنتها ، وطارق بجانبهما يخفي اضطراباً في نفسه . الدوي يزيد شيئاً فشيئاً »

نجلاء : (لأمها علياء)

أماه ! كل أعضائي ترتجف !

علياء : هوني عليك يا بنيّ ! إنهم لا يضربون إلا الأهداف العسكرية . . .

طارق : ولكن ألا يدل هذا الدوي القريب على أن القنابل غير بعيدة عن رؤوسنا ؟

علياء : يخيل إلينا ذلك ! ولكن الحقيقة . . .

(هنا يحسون بالبيت يرتجف زجاجه وتصطك أبوابه)

طارق : الحقيقة أنهم سيصيبون سقفنا !

نجلاء : أماه ! ضميني إليك ! نادي أبي ! أين هو عنا في هذه الساعة ؟

(تحاول الأم عبثاً تهدئتهما . لكن الدوي قد ابتعد وإن كان لا يزال)

علياء : نامي يا نجلاء ! !

نجلاء : كيف أنام ولم يأت أبي !

طارق : لا أراه الليلة قادراً على الوصول إلينا . . . لأن غارة الليلة عنيفة تنذر بضحايا كثيرة .

علياء : إن واجبه يدعوه إلى استنقاذ الضحايا ، والبحث عنهم تحت الأنقاض !

نجلاء : ويلاه ! أينتشون الضحايا من تحت الأنقاض ؟ أحقاً يا أمي كما يقولون ؟ إنهم يجدون أطفالاً مشوهين تحت الأنقاض ، ورجالاً مبتورين ! . . و . . .

علياء : ويك ، ومن يوحي إليك بهذه الصور ؟

نجلاء : لقد سمعت جارتنا تقول اليوم : إن القنبلة التي سقطت على البناية الكبيرة ، هشمت عشرة أشخاص اختلطت أعضاؤهم بعضها ببعض . . .

طارق : إني لا أستطيع أن أتمثل أبي الآن يدور تحت قصف القنابل من شارع إلى شارع بسيارته . . . أخاف عليه الشظايا . . . حاملة المنايا !

علياء : قل : « لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا » .

طارق : بودي أن أنطلق إليه !

علياء : وأي طريق تسلك في هذه الحالة ؟

(يشتد الدوي حتى لكأنّه يقع عليهم)

نجلاء : أماه ! أماه ! شيء لا يمكن احتماله ! عدينا

بالسفر إلى الريف قبل مطلع الفجر ! . . لم يبق أحد في المدينة .

علياء : وأبوك يا نجلاء ؟ لمن تتركينه ؟

نجلاء : (تتردد باكية)

علياء : لكن ذلك ! غداً سنسافر عند مطلع الفجر .

طارق : وأبي ؟ . .

علياء : يبقى ليُعنى بالمصابين . . أليس هذا ما تريدون ؟

طارق : إنني لا أبرح مكاني بدونه . . .

نجلاء : ولماذا يقتلوننا ، ويهدمون بيوتنا ؟ أي غرض لهم في هذا الشيء ؟

علياء : إن هذا السؤال يتردد على كل شفة في المدينة . . . اما الجواب . . .

نجلاء : الجواب . . . تريدون الجواب ؟ هي الحرب . . . كل ما على الأرض يتلظى بنارها ، الأبرياء فيها مثل المجرمين . . . ومن نحن حتى ينقذنا القدر من لظاها ؟

طارق : ولكن أولئك يشتعلون بنارها ، وينجرفون بتيارها . . . لأنهم أرادوها . . . لأنهم أشعلوها لينتصروا ! ونحن ماذا يصيبنا إذا تحملنا أثقالها ؟ . . أولئك يموتون للظفر . . . وغيرهم يهلكون للوطن . . .

ونحن لمن نموت ؟ لو كان لنا وطن لقلنا : هو الوطن يريد أن يحيا على أشلائنا، وهي الحرية تريد أن تلغ في دمائنا. . . ولكني ألتفت حولنا. . . فلا أرى شيئاً نموت من أجله ؟ أليس ذلك حقاً يا أمي ؟ . . هل نموت لشيء لا أعرفه ؟ إن كان هلاكنا من أجل الحرية فدعيني أخرج مع الخارجين . . . وان كان استشهادنا من أجل الوطن فأعذب بالموت مورداً !

علياء : (مضطربة)
ولكن أهلنا – وحدهم – يموتون . . .
(تبرق عينا طارق)

طارق : ألهدف أسمى ؟ . .

علياء : للاشيء . . . (ينكس طارق طرفه) دائماً للاشيء! لقد مات آباؤك وأجدادك من قبل . . . وتخضبت هذه الأرض المقدسة بدمائهم للاشيء . . . وكانت العاقبة في كل نكبة .

طارق : للاشيء ! . .

علياء : لقد أغفت أختك ، فأبعد الشمعة عن رأسها . . . غلب الكرى عليها وهي تظن أن دوي القنابل قد انتهى . . .

(تنهض وتدبر لها مكان نومها)

(تدق الساعة الواحدة بعد نصف الليل)

ألا يزال تحت الأنقاض مصابون يعملون على رفعهم ؟

طارق : مر على هذه الغارة ساعتان دون أن تنتهي ، وما أظنها منتهية حتى مطلع الفجر . . .

علياء : لو كان هؤلاء المصابون يعتقدون أن إصاباتهم من أجل الحرية والوطن لهان عليهم الدمار والنار! ولكنهم يعلمون أنهم يصابون ، ويموتون .

طارق : للاشيء ؟ . .

علياء : هذا (اللاشيء) يلاحقنا دائماً . . . ودائماً نتبع هذا (اللاشيء) يخضب بلادنا الجميلة بأبشع صور السلام . . على مسارحها يتنازعون ، وفي أطرافها وأهلها يعيثون ، فإذا القضية ليس لنا فيها شيء .

طارق : أماه ! . . إذا أصابني سوء فهدهدي روحي ببشائر الحرية ! . . أحس أن اليوم الذي نموت فيه من أجلها قريب . . . رفاق لي كثيرون أهابت بهم فانسلوا من أحضان أهليهم للقائها ، غير عابئين بالشدائد ولا حافلين بالمخاطر . . .

صغارهم متاريس رمل للأبطال، وكبارهم لمكافحة الأهوال . .

إنهم عرفوا أن يموتوا من أجل الحرية حينما نادتهم الحرية . . .

علياء : ولكن موتنا الآن . . .

طارق : لا لشيء . . . ؟

يجب أن يكون موتنا لشيء . . . يجب أن يفهم الناس أننا نموت .

علياء : للاشيء ؟ . .

طارق : إذا لم نمت الآن باسم الحرية فليقولوا لمن يقاتلون من أجلها إننا متنا من أجلها .

علياء : لكن هؤلاء لم يأتوا يوماً ، ولن يأتوا . . . قد انتظرناهم كثيراً على مفارق الطرق ، ولوحنا لهم بأيدينا ، فكانوا يملكون كل شيء إلا الحق ، وكانوا يعطون كل شيء إلا الحرية . . .

طارق : أمتأكدة أنت أنهم لن يأتوا ؟ . .

علياء : إنهم مروا على هذه الطريق من مئات الأعوام ، ولا يزالون يمرون . يخدعوننا فنخدع ، ويكذبون علينا فنثق . . . أما ضحاياهم فنحن دائماً !

طارق : ما أفظع هذا المصير ! . . لأنه ليست له سطور

في صفحة المجد .
(تكسو وجهه كآبة)
ولكن يجب ألا نتركهم يمرون ، وإذا مروا فلنصم آذاننا عن استماع دعوتهم . . . ولنصرف أنفسنا عن الانخداع بحريتهم ! نحن وحدنا . . . يجب أن نبقى هنا !

طارق : (باضطراب) لا لا . . . لن نموت كذلك ! دعني أخرج إلى حيث أموت واقفاً (يشتد قصف القنابل حولهم) أريد أن أموت واقفاً — كما كان أجدادي يموتون . . .
(يسمع دوي هائل ونرى سحب الغبار فوق المنزل)

المنظر الثالث

عودة إلى المستشفى

(الازدحام كثير ، والاسرة متعددة ، والأنين يزيد ويتفرق . . . يدخل احد المرضين مضطرباً ، ونراه مع الطبيب عادل) .

عادل : (في حالة اضطراب ويأس)
ويحك ! هل هلكوا جميعاً ؟

المرض : ذا ما استطعنا استنقاذه من تحت الأنقاض . . .

(مشيراً إلى سرير عابر)

عادل : وهل بلغ « عاطف » هذا النبأ ؟

المرض : إن سيارته كانت بعيدة !

عادل : ادعه بالهاتف ! . . ولكن لا . . . ان وقعه سيكون خطراً . . . احملوا فتاه إلى غرفة العمليات . . . يهمنا الآن أن نخفف الكارثة بإنقاذه من الموت .

(يحدق في نظر الممرض المتردد)

أيكون ذلك مستحيلاً ؟ احمل الأطباء على إجراء العملية قبل مجيء والده ! . . (يهمان بالذهاب فيسمعان صفير السيارة المقبلة) أظن أنه مقبل . . . وان نفسه حدثته بالكارثة . . . دع أمر إخباره لي . . . ولا تتظاهر بأية خاطرة تبدو على وجهك !

« يدخل الطبيب عاطف وعلى وجهه أمارات ما لقيه من الهول والعناء في صنع الواجب : ولكن البسمة تزين ثغره »

عاطف : هل من جديد ؟ هل من ضحايا ؟ إنها ليلة مكفهرة بما نضحت به من الأشلاء .

(لا يستطيع أن ينطلق معه في حديثه)

عادل : الحقّ ما تقول ! ليلة شهدت أعنف الغارات

وأدهى النكبات ! تهشمت فيها أجساد كثيرة ، وتشوهت أطراف كثيرة ! . . ولا نعرف ما يخبىء لنا المزيع الأخير منها . . .

عاطف : تبقى أنت على تشاؤمك .

عادل : لي الحق يا طبيبي في هذا التشاؤم . . . أرى الأشلاء تتناثر من حولي . . . وأسمع تأوهات المتوجعين تصم منافذ سمعي . . . وتريد بعد ذلك أن أتفاءل وأطرب ! وما يدريني أن عزيزاً لي ، أو فتىً لك (يمتعض عاطف ولكنه لا يحفل) قد طوته الأنقاض ، أو هو – هنا – على أحد هذه الأسرة ؟ (مشيراً إلى السرير)

عاطف : (يهز رأسه كالمقتنع)

(لا يزال الأنين يتصاعد)

ما زلنا نتحدث عن الغارات والطائرات والضحايا والأنقاض حتى أزت فوق رؤوسنا ، وانقضت على سقوفنا ! . .

(صوت من القاعة الثانية مرفق بتأوهات)

(عادل عرف صاحب الصوت ، وهو يتأمل وجه (عاطف) الذي طفق يتغير)

طارق (صاحب الصوت)

أريد أن أرى وجه أبي . . . أليس هو هنا ؟
ادعوه لي . . . أحس أنفاس الحياة تذهب مني . . .
وجه أبي . . . وجه أمي . . .

عاطف : أين يصيح هذا الصوت ؟

عادل : في الغرفة المحاذية . . . صاحبه – ولا شك – تحت مشارط الأطباء .

عاطف : علينا به !

عادل : ولكن . . .

(يعود الصوت مرتفعاً)

طارق : إني أشعر بأنه قريب مني ، يسمعني ولا يستجيب! ألا اعرف صاحب هذا الصوت ؟

طارق : أبتاه !

عاطف : (يركض مضطرباً)

(يبقى عادل في مكانه حائراً)

* * *

« طارق على سرير وحوله أطباء وممرضون ، بهتوا حين دخل أبوه عاطف »

طارق : أبتاه !

عاطف : ولدي !

طارق : إني بخير . . . ولكني لاأدري ما حل بأمي وأختي ،

لم أجد إلا الدخان ، وأثقال التراب تنحط علينا . . . فتحت عيني ، مددت يدي . . . لا شيء إلا الدخان ! أردت أن أمشي فسقطت على شيء . . . ثم وجدتني مطروحاً على هذا السرير . . .

ممرض : (يتقدم الممرض السابق من عاطف)

تركت عملية رفع الأنقاض تجري بسرعة ، وربما يتمكنون عاجلاً من استنقاذهما . . .

عاطف : ألم تنته الكارثة بعد ؟ رباه ! ماذا خبأ لي القدر ؟

(طارق يتململ ، ولكن على ثغره بسمة المتعذب)

طارق : ذا كل ما تمنيته يا أبي ! إنني راضٍ جداً الآن !

عاطف : أي شيء تمنيت ؟

طارق : أن أراك . . .

هل يمكنني أن أرى وجه أمي وأختي ؟ لقد كنا نتكلم عن الموت والتضحية . . . وقد هزتني كلمة أمي حين قالت لي : « إننا نموت للاشيء » أحقاً ما قالته ؟

أتذهب حياتنا ضائعة ، وتتناثر أشلاؤنا وأرواحنا بلا غرض ولا غاية ؟ قل لي لماذا نموت ، وفي سبيل أي هدف نسحق ؟

(عاطف يبقى متألماً ،شارداً، قلقاً لا يحير جواباً)

أخبرني هل ترى على وجهي شعاعة الحياة ؟
هل ترى في عيني نورها المتدفق ؟ إني أريد الحياة .
(طارق لا يزال يتململ)
ولكن لماذا أريدها ؟ فإذا كنا نموت للاشيء ،
فإنا كذلك نحيا للاشيء . . . وأولى لهم أن
يدخلوا أرضنا خالية خاوية ! . . أبتاه ما لي أراك
لا تتكلم ؟
(ينتبه عاطف) قوّ فيّ أنفاس الحياة ! . . ستكون
لي غاية أخرى من الحياة . . . ألست بواثق من
بقائي ؟ . . ذلك ما أراه في صمتك .

عاطف : (يهتز ويمر يده على وجه ولده) .
ما بك شيء . . . إنك ستحيا .
طارق ! أحقاً تقول ؟ دعني أقف قليلاً . . .
(يتحرك) ولكن لا . . . ليس لي ساقان تحملانني !
عليك بأمي وأختي . إنهما في حاجة إلى معونتك ،
بادر إليهما . سأبقى أنتظر حتى تعود .
(ينطلق عاطف بعد أن يقبل ولده والدمعة في
عينه)

عاطف : « للممرض » إني ذاهب إليهما فانتظرني حتى
أعود .

طارق : أحقاً يستطيع أن يعود الآن بأمي ، وأختي نجلاء ؟ لا أظنّ ذلك ! . .

(يدخل عادل)

عادل : إلى الحياة يا طارق !

طارق : ذلك ما آمله .

عادل : وأبوك ؟ (يسمع دوي السيارة المنطلقة) .

طارق : إنّه انطلق إلى أمي .

عادل : ذلك محال . . . (يلتفت إلى من حوله) إنّه انطلق ليزج بنفسه في وسط المعركة . إنّه ذهب ليبحث عن الموت . لأنّه لا يريد أن يعود ، أدركوه !

طارق : قال : إنّه عائد إليّ مع أمي وأختي .

عادل : (يعي لطارق فيبدّل حديثه) .

لننتظر إذاً عودته بعد قليل ! . . إنك مرهق الآن فاسترح ولا تتكلّم !

طارق : سأستريح . . . ولكن أتظن أن عودته ستتحمل أكثر من ساعة ؟ إني أفضل أن أبقى متيقظاً حتى يروا عينيّ مفتوحتين ، لأن العين المغمضة تبعث على الذعر والرعب . العين المغمضة تشبه العين الجامدة . . . تكلموا أمامي ! . . عن الموت إذا

شنتم ، لأني لن أخشى الموت ! ولكنا – وأسفاه – نموت غير أبطال ! في غير معركة الحرية .

عادل : نعم ! يموت أهلنا غير أبطال ، لكن الكثيرين منهم ماتوا أبطالاً ، من أجل الحرية التي أحبوها ولم ينالوها . ماتوا مع الذين ادعوا بأنهم يحملونها إلى الأمم ، ولكني لا أعرف إلا أنهم ماتوا . أما هي ، الحرية ، فقد بقيت عندنا سراً غامضاً ، أو . . .

(يبتسم طارق)

طارق : والآن أين بلغنا من منازل الحرية ؟

عادل : في كل مرة منازلها دانية ، ولكن لا نراها .

طارق : أسفاه ! كما تقول لي أمي « إننا نموت للاشيء ! »

عادل : ولكن . . لا لا . . يجب ألا نموت للاشيء ، إننا نموت لغاية أسمى ، إننا نتشوه لمثل أعلى .

لقد جاء الغرب مرات عدة إلى الشرق ، وفي كل مرة خضب هذه الأرض المقدسة بدماء الأبرياء ، وغرسها بالأشلاء . وفي كل مرة يضرب أو يدمر باسم الحق والحرية . دخلها مرات فلم يتركوا وراءهم إلا الخرائب والأنقاض والحرائق . ولكن الشرق ، الشرق الجميل، كبير

الروح ، واسع الأمل ، سامي المثل . ترسل منارته أشعة الحق والحرية . لقد بقي الشرق دائماً وسيبقى ! هذه الأنقاض لا بدّ منها ! وهؤلاء الأموات لا منصرف عنهم ، وهؤلاء المشوّهون يحتاج الشرق إليهم في رسالته . وهذه الأرض المخضبة بالدماء هي التي ستفيض بالشعاع !

(طارق يظهر على عينيه بريق خفي ، وارتياح غامض)

طارق : ما أسمى معانيك ! كنت من قبل أموت بدون أمل ولا تعزية ! فما أعذب الموت الآن !

عادل : (وكأنه لا يلتفت إلى الجملة الأخيرة)

هذه الأنقاض تدل على أن رسالة الغرب أفلست... وهذه الضحايا هدية الحرية التي تولد في أحضان الشرق، وهؤلاء المشوهون رسالة الشرق إلى الغرب، رسالة الإنسانية السامية إلى الوحشية التي لا ترحم !

(يدوي بوق السيارة)

(يلتفت إلى طارق فيرى أنه أغمض عينيه ، وعلى وجهه غبطة عميقة)

أواه طارق ! لقد عاد أبوك . تيقظ يا طارق !

(صمت طويل يقطعه دخول ممرض لا يلبث

أن يقف ذاهلاً)

لا تتركوا والده يدخل فوراً .

ممرض : ولكنا تركناه تحت الأنقاض أثناء قيامه بالواجب، إنه انتهى .

(يهب عادل)

عادل : لقد صدق ظني . إنه ما ذهب إلا لينتحر .

دائماً . . . أنقاض . . . ضحايا . . . مشوهون . . .

متى يطلع النور ؟

الأنقاض والضحايا رسالة المدنية . . . والمشوهون رسالة الحرية .

الستار

دمعة صلاح الدين